الأشجار الأولى

رواية

الأشجار الأولى

عمر أبو سمرة

نوفل

صدرت عام 2023 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Trevillion Images / ??? ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-060-108-6
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-060-109-3

«أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ»

الأعراف: 80

«تتذكّر بدقّةٍ إلى حدٍّ ما، كلّ أخطائي، تبجّحاتي، زلّاتي، إلى متى سأبقى مغمضًا عينيَّ عن خيانتك؟ هل أنت المستر وتستون؟ (فجأة) هذا الذي انطلق إلى نهايات العالم، لينكر لا نفسه: الله، الشمس، تاجرًا رحّالة، وبعدما أنكر نفسه هو في الواقع، أصبح هو نفسه تلك النفس التي أنكرها».

جيمس جويس

«Then Next year in Jerusalem, dear, O dear, all that long business about that brought us out of the land of Egypt and into the house of bondage».

Alleluia, shema Israel Adoni Elohenu

«No that's the other, then twelve brothers Jacob's sons. And the lamp and the cat and the dog and the God. Touch me soft eyes, soft soft soft hand, I am lonely here, O touch me soon, now what is that word known to all men. I AM QUIET HERE ALONE, sad too, touch me please touch me, alas I cannot feel you!»

Ulysses

CANTO II: This is the earth?
Then I don’t belong here!

الكنتاتا تبدأ: لقد هَمَسَ في أذني؛

You are a killer

هذه آخر الخطوات، وتلك الأصوات ليست إلّا آخر أصوات أسمعها؛ كنت أمشي وحيدًا على الجسر الكبير. أمشي وحيدًا، أفكّرُ وحيدًا، أستنشقُ السماء وأموتُ. ويخطر في بالي أنّ فكرة نموّ الأشجار لا تكتمل إلّا بوجود الكَنتاتا، لأنّ هذه الحكاية التي بدورها حكايتي، حكاية عن الأشجار التي من حولنا، لكنّها كنتاتا موسيقية أيضًا، والكنتاتا حسب التعريف العلمي؛ هي قطعة موسيقية سردية متوسّطة الطول للأصوات بمرافقة معزوفات وجوقات وأوركسترا. وهذه الكنتاتا المزدهرة والبائسة جدًا في آن واحد، هي كنتاتا ترافقها الأشجار، لكن في تلك الأزمان حين خسرت بحيرة طبريّا نصف عذوبتها، وكانَ آنذاك كلّ شيء يُقاس بالفراسخ؛ حين تفشّت الأوبئة والطواعين في المدينة، هلك الزرع، وجفّت التربة، وذبلت الأشجار، وتضوّرت البطون جوعًا. حدث ذلك بعد معركة الأقحوانة، وحينها لم يكن أمام جدّتي ناديا الفاعور سوى الهرب. وبينما ينشقّ النهار إلى نصفين، والليل يفقد قدرته على التكاثر، يُصبح كلّ شيءٍ قابلًا للاضمحلال والتقشّف في نظرها. أمّا النجوم، فلا تسطع في عينيها، إلّا بعد أن تراهُ راقدًا في مهده، وتحكي له كلّ تلك الحكايات. قَد تَكونُ بَغيًّا من يَثرب، امرأة لا تصلح أن تكون زوجة لجدّي، لكنّه على الرغم من ذلك أحبّها بشدّة، وهي بدورها أحبّته حبًّا جمًّا لا يعرف القهر. والآن هي ميتة، ويُخيَّل لي أنّها لا تعرف الموت، بل إنّها تعيش في عالم آخر، حلمها أن تصبح شاعرة جيّدة بقصائد رديئة جدًّا. والحلم الذي نعرفه يبدأ دائمًا من

مكانٍ ما، قبل هـذه اللحظة، إنّـه ببساطة يعود إلى أعـوامٍ نسيتها الأذهـان، وفقدتها العقول. في البدءِ خلق الله السماواتِ والأرضَ، وبعدها قرّر أن يخلقك أنتَ، جدّي، وكانت الأرض بلا معالم، وبلا نور. كانت ظلمةً مخيفة لا يسكنها إلّا بعضٌ من الناس، وقال الله، ليكُن نـورٌ، فكان نـورٌ، وبعدها كنتَ أنتَ وحـدك، جدّي الذي يضع أصابعَ قدميهِ داخل فم ناديا، جدّي من يقف خلال الليل ويحدّق في وجهها، ويركلها في خاصرتها. بعدها دعا الله النور نهارًا. أمّا الظلمة فتركها في الليل، كما ترك جدّي ناديا في الزقاق المظلم، تناديهِ هباءً. وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا، يشبهنا، يأكل أسماك الحنكليس والكائنات الحيّة كلّها، ولنجعله مفترسًا، فتّاكًا، يقتل البراغيث بأظافره، غبيًّا أو أحمق. فقد خلق الله الإنسان على صورته، وخلقك أنت على صورته. تتركها وحيدة، لكنّها تبقى تحبّك بشدّة رغم أنّك تخونها. تسمع أجـراس الكنيسة تَطنُّ في أذنـك، بينما تخون حبّك الوحيد ناديا الفاعور في فناء الدار. وأنت جدّي الوحيد، تعلم جيّدًا بأنّ نوح كان رجلًا بارًّا، لا عيب فيه بين قومه. عمل نوح بمشيئة الله، وؤلـد لنوحٍ ثلاثة بنين، سام وحام ويافث، والرابع أخال أنّه أنت يا جـدّي. أراكَ خبيثًا ولعينًا، تفسد الأرض. ورأى الله أنّـك أفسدت الأرض، وأنّ الأرض قد فسدت، لأنّك وطئتها، لقد فسدت تلك البلاد كلّها، وجفّت مياهها، وعطشت أرضها، وتسمع الله يقول لك؛ وها أنا آتٍ بطوفان المياه، على الأرض، لأهلِك كلّ جسدٍ فيه قـوّةُ حياةٍ من تحت السماء. والمصير هو الموت لكلّ ما في الأرض، وأنت تناشد الله؛ إلهي حبيبي، إلهي مجدي، أنا ابنُ نوح. لكنّه لا يصدّقك، فهو يعلم أنّك منافق، يعلم أنّك زوج ناديا، ويعلم أنّك تتركها، ولا تأتي، ويقول الله مجدّدًا؛ سأعود كي ألعن الإنسان الذي خلقناه على صورتنا، لأنّ قلب الإنـسان شرّير، وأنـت تجول بين الصيف والشتاء، وبين

تقاسيم الليل والنهار، وتجوب الحارات، وتسمع أبواق السيّارات، وتعلم أنّ الله سيطردك من فلسطين عاجلًا أو آجلًا، أنت مطرودٌ من جنّتي، أنت مطرودٌ من فلسطين. وبينما كنتَ تخون ناديا في فناء الدار، وبنطالك الأصفر يصبغ الأرض، يقول الله؛ سعداء أنتم أيّها الفقراء، لأنّ لكم ملكوت الله. سعداء أنتم أيّها الجياع الآن، لأنّكم ستشبعون، سعداء أنتم أيّها الباكون الآن، لأنّكم ستضحكون، سعداء أنتم متى أبغضكم الناس، ومتى عزلوكم وعيّروكم ونبذوا اسمكم كشرّير من أجل ابن الإنسان، اذهبا وأخبرا يوحنّا بما رأيتما وسمعتما، العمي يبصرون، العرج يمشون، والصمّ يسمعون، والأموات يقومون، والفقراء يُبشَّرون، والشعراء يبتلعون الكلمات، والحدّادون يصنعون أدرُعًا لغزوتَي بدرٍ وأُحد، وخيّاطو الحيّ يُلوّحون بالتنانير القصيرة من الأسقف. والإنسان، آه الإنسان، يا له من مخلوق ماكر! ذلك الشيء الذي يبزغ من العظم. لقد خلقنا أوّلًا الجمجمة، ثمّ الهيكل المحوري، ثمّ الأطراف، ليونة العظام في المفاصل، في الأيدي والأرجل، ومن بعدها خلقنا الروح من الأشعار! سعداء أنتم أيّها الفقراء! سعداء أنتم! مساكين أنتم، ألا تعلمون أنّه من دون الشعر يموت ذلك الإنسان! وبينما أخطو أولى خطواتي نحو البيت، وأفكّرُ في جدّي؛ جئت أنت يا جدّي، ابن إنسان يأكل ويشرب، ويجول في مرج ابن عامر، وتعلم أنّ مرج ابن عامر يقطع فلسطين باتّجاه الغرب-شرق، ليصل بين وادي الأردن وجبل الكرمل، لكنّك تبقى تجول في مرج ابن عامر، والله ينظر إليك بسخط، بينما تحارب في معركة مجدو بسيفك، لكنّ الله يقرّر أن يطردك من ملكوته، يطردك من فلسطين، وأنت تخبره تاريخ بلدة بيسان كلّها، وهو يصرّ على أن يتخلّى عنك، ويطردك من أرضه. فعلًا يا جدّي، لقد وُلد المسيح في بيت لحم أيّام هيرودس، لكنّك مطرود من فلسطين، ويجب أن تغادرها، محال أن تبقى هنا. وتعلم أنّه في البدء

كانت الكلمة، وبعدها كنت أنت، وحدك، ليس فقط جدّي بل نازح من فلسطين، تحارب نابليون خلف سور عكّا، وتترك ناديا تنوح وحدها في أقاصي الليل بينما تجمع قصب السكّر والزيتون، وتبقى تقول إنّها لا تشبه سوى الفجر عندما يكشف عن أسنانه السوداء، وإنّك لا ترى سواها حبيبةً إلى الأبد، لكن ماذا يعني الأبد؟ هذا هو أنا، إنّي أطوف في باحة دارنا، وأراك في فناء الدار تخون ناديا، تطعن ناديا في قلبها، وتقول إنّها شاعرة رديئة جدًّا بينما أرى كلّ أطراف الدار! من المدخل، مرورًا بالدهليز وصولًا نحو الغرف! وبينما أطوف في البيت وحيدًا، أذكرُ كلّ ما حدث جيّدًا، أذكرهم كلّهم، بيبو، جدّتي ناديا، وأذكرك يا جدّي ببنطالك الأصفر، وأرى الدار كلّها حطامًا، كيف يشعر ذلك الانسان الماكر عندما يرى بيته حُطامًا؟ هل يشعرُ بالغضب؟ ذلك الغضب الذي يحتلّ أبدانًا تتجرّعُ ذاتها! من يبرّر لنا غضبنا والأشياء كلّها تتمزّق، والأصوات تبلع ذاتها، والشراشف تنزلق عن الأسِرّة، والملاعق تهرب من المطبخ، تراها تقفز من الدُرج، تفرُّ نحو باحة دارنا، وذلك الإنسان ضعيف! يسقط كلّما تقدّم خطوة! وأنا أبقى أمشي وحيدًا على الجسر الكبير، وحيدًا أفكّر، بينما أذكر الجندي قادمًا باتّجاهنا، وبيده بندقية، لقد شممتُ رائحة إبطه، وقرّر أن يغسل قدميه في بيتنا، ويجلب لنا العار. لقد دخل بيتنا، إنّه العار، لعلّه الخزي، لقد أتى الجندي الإسرائيلي إلى منزلنا ببزّةٍ عسكرية ملطّخة بالطين، أذكره جيّدًا بقدمَيه المتّسختين العنيفتَي الخطوات، كنتُ أحدّق في قدمَيهِ بينما يحدّق هو في الأشياء كلّها، يسحبنا من نومنا، ويأمرنا بإخلاء البيت. لقد سحب نساء البيت من شعرهنّ، أمّا الرجال فمن أقدامهم. كنتُ أجلسُ وحيدًا أنتظر الصباح، وأرى الصباح آتيًا من بعيد، وأرى ناديا قادمة مع الخيوط الأولى لكن بدلًا من قدومها، دخل الجندي بيتنا، وكسر أبواب الباحة مع قدوم أولى ألوان الصباح،

بينما ينشقّ النهار فوقنا. لقد سمعت صوته، صوتٌ قويٌ عميقٌ، وفكّرت كم «أوكتاف» يمكن أن يكون ذلك الصوت، الذي أتى من الزقاق المقابل لمنزلنا، ودخل حتى غرفة نومي ليحتلّ دهليز أذني، إلى أن كاد يمزّقها. وفكّرت كيف سيصوّب بندقيته فوق رأسي، ويضعها داخل فمي، بينما يشق عرقي طريقه نحو العانة كي يفرّ من القدمين، وكيف سيجعلني ألحس قدمَيه، وهو يسأل عن ناديا الفاعور، ويقول لنا إنّها هربت وبحوزتها الوثائق، ونشاهد كيف للخوف أن يزحف فوق وجوهنا، ويجلس على الأرائك ينظر إلينا، فيما أنا أحدّق في الحائط، وأنظر إليه، لكنّه يغلبني، والجدران تنهار، وكلّ الأشياء من حولي تنهار. وناديا الفاعور قادمة من بعيد، تطلب النجدة، بينما يدخل الجنديّ بيتنا من باب خراسان، ويسحب السجاجيد الحمراء من تحتنا، ويفرغ الشوك والملاعق من المطبخ، ويحرق جميع الثياب، يحطّم الأسِرّة، يأتي من الزقاق المقابل لمنزلنا، ليدخل من باب المنزل، بعد أن يخترق الباحة، ويرى عبّاد الشمس والخزامى في طريقه. دفعَ الجنديّ الباب، ونظر نحو عتبة المنزل، ونظر في المنزل، ما إن رأى التلفاز، حتّى حطّم التلفاز. ما إن رأى صور ناديا حتّى مزّقها. رأى الشمعدان، فقذف به أرضًا. لقد أفزع نومنا، داس على نومنا، هيّا، استيقظوا من نومكم. كنتُ أرى الخوف في عيونهم كلّهم، وأشعر بالبكاء، لكنّي لا أبكي، بل أشعر بالبكاء، شيءٌ يفيض من الداخل، لكنّه لا يخرج، بل يبقى حبيسًا في حلقي، واسمها يبقى يهتزُّ في الحنجرة، اسمًا كبيرًا يُقاس بالفراسخ. لقد علقنا هنا كلّنا، والخوف من الرأس حتّى أخمص القدمين، والخوف مثل الفجر، يشق قلوبنا، والخوف يجري بين العروق، يجول مثل الليل، يطرق كلّ الأبواب، وأسمعها تنادي، قادمة من بعيد، صهباء مثل النار، اسمها ناديا الفاعور. لقد حُبِسنا، ويقولُ لي الجنديّ بصوته الجهوري: أمامك

عشرُ ساعات، عشرةُ آلاف كلمة، عشرون ورقة، قلما حبر... يجب أن أكتب حكاية ناديا الفاعور كلّها كي يفرط اعتقالنا. حسنًا، سأكتبها، كما أذكرها، دعوني أذكرها، لقد تذكّرتها من الـhyoid bone، [العظم اللامي]، أذكر حلقها أولًا، وأعلم أنّها دَفَنت الوثائق. كانتْ تفوحُ مِن شعرها رائحة الحمّص لا اللوز المرّ، صهباء، تترنّح في شوارع حيفا، تقطع وادي النسناس، وتمرّ من شارع عصفور، لتصل إلى الحيّ الألماني منهكة من التعب وتحكّ عنقها، بينما تولول النسوة على الشرفات، فيما الرجال يصيحون في الأزقة الضيّقة. أطفالٌ يهابون قدوم الغول المنتظر، وجدّي يُشبه النار وشظائرُ فلافل فاسدة وسط الطريق. نفايات محروقة، معلّبات تنك فارغة، عُلبٌ بلاستيكية، أسلاكٌ معدنية، أسلاكٌ حديدية، أسلاكٌ مطّاطية، وناديا تشعر بالحكّة، وعينا جدّي تُحدّقان مثل النار. أشياءُ أخرى من المغّيط، لِحافٌ مُمَزّقٌ، وسائدُ من القطن، سِداداتُ أذنٍ لونها أصفر، فُوَطٌ صحّية ملطَّخةٌ بالدماء، أوانٍ أكلها الصدأ، ثيابٌ مُمَزَّقةٌ ومُهترئةٌ تخرجُ منها الصراصير، وناديا الفاعور تكرهُ الحشرات، فيما نملةٌ كبيرةٌ تقفُ وسط طريقها، وتمنعُها من مواصلة المشي. وفستانُها يطير، وهي تطير، تُحلّق... تلوكُ الفجرَ بين أسنانها، تمضغُ الفجر، تبصقُ الفجر، وجسدُ جدّي ملتَهِبٌ، ينظرُ إلى ناديا بحرقة، يُحدّقُ فيها، يأكلُها بأسنانٍ ثخينةٍ. يحاول أن يقضم زوجته ناديا، وينظر بحرقة، ويصيح في الشوارع، يشتاق إليها، إنّها وحيدته، يخاف أن يلمسها، تصبح أشواكًا في حلقه، والخوف في عينيه مثل النار، إنّه لا يذكرها سوى عذراء، مثل مريم، ومثل نرمين. ويذكر أنّها تحبّ فجرَ حيفا، حين يَشُقُّ كبدَ السماء. إنّه ألقُ السماء، تحاول أن تقبض عليه، ودموعُها مِدرارة، والقذى بعينها وخدُّها مثلُ التوت، وعلى جسدِها شجرةُ جوز، لعلّها شجرةُ زيتون مقدّسة. وتعلمُ ناديا بأنّ الموت بات محتومًا، وبدأت

تفوحُ من جسدِها رائحة العَرَق، لكنّه ليس أيَّ عَرَقٍ، إنّه عَرَقُ الموتِ، حيثُ يتقلَّصُ الجسدُ، ويصبحُ مثلَ شيءٍ فقد قيمتَه للتوّ. إنّها عالقةٌ على جدرانِ المدينة، تلوكُ ذكرياتها، تحاول أن تتذكّرَ أيّامَها، لكنّها غادرت، ونرى كلّنا جسدَها مُلقىً على الطرقات؛ صبيّةٌ في العشرين، لا، الثلاثين... الأربعين... أو الخمسين من عمرها. إنّها عالقةٌ في ثيابها، تحاول أن تنزع ثيابها، تلتصقُ بها الثياب، تشقّ فستانها، تمزّقه، تقطّعُه، تحاول أن تزحف، أن تنجو. إنّها نائمةٌ مثل ماموثٍ ضخم شقَّ بأسنانه إسفلتَ الطريق، نهش السنديان، قضمَ الأرضَ بقسوةٍ. لقد رأوها، كلّ أهالي حيفا رأوها، زحفت نحو جبلِ الكرمل حتى وصلت إلى شارع عبّاس، امرأة طاعنة في السنّ تعيشُ فيها نساءٌ كثيرات، امرأة تتسلّقُ الشجيراتِ الصغيرة، تلهث وتبكي. وعلى الأرجح أصابتها حُمّى قاتلة فوقعت تستغيث، تنادي ابنها بيبو، وتنتظرُ الليل. تسمع أصواتًا تنبثق من جوف الليل بينما كان الجنود هناك في انتظارها. لقد هربت منهم، لكنّهم قبضوا عليها من رأسها وجرجروها من شعرها، نحو شارع عبّاس، وهي تنزف. يقولون إنّها كانت تشبه الغزال لحظة اصطياده وهو غائبٌ عن يقظته، لعلّها ظبية. لقد قتلوها، شقّوا جمجمتها إلى نصفين، لقد ظهر المخيخ والوطاء، اقتلعوا الفصّ الجبهي، ثمّ الفصّ الجداريّ، والفصّ القذاليّ والصدغيّ، لقد حطّموا رأسها بالكامل، فتّتوا دماغها. لكنّ جدّي بقي يتذكّرها طريحةَ الأرض، تفوح منها رائحة البول، وقد بال الجندي فوقها، فصارت مُعبَّأةً بالبول المتعفّن، إلهي أنقذها، أرجوك. أنا هو يهوه، حفيد ناديا المدلّل أتوسّل إليك، إلهي، أنا نوح، لماذا لا تصدّقني، لماذا لا تشفع لابنك الوحيد يهوه، لماذا ترفض أن تصدّق روايتي وتقبل بروايتهم، إنّك تصنعُ كلّ الأشياء المستحيلة! ومن بين الأشياء المستحيلة، نسيان جدّي لزوجته. لقد أحبّها كثيرًا، وكان يحلم بها

طوال حياته؛ تمرّ من الحيّ الألماني، فيثب فوقها رجالٌ ضعفاء، مساكين لا يملكون إلّا قضيبًا صغيرًا بالكاد ينتصب، يحلمون بفرج أنثى قاصر! لكنّها لم تكن قاصرًا، ولم تكن عذراءَ أيضًا، كانت جدّتي تحملُ في رحمها جنينًا حين هربت من بيتها. وقد استغلّ جدّي هشاشتها بجشع ماكر، ذاتُ الجشع الذي استولى على الإنسان منذ نشأته، كان جدّي يضاجع الفتيات الرومانيات والروسيات، وبينما يضاجعهنّ، كان بنطاله الأصفر يصبغ الأرض كلّها، ويجعل بلاط بيتنا أصفر. كان جدّي يخون ناديا، لقد غدر بها كثيرًا، كما غدرت بي أنت، إلهي، لكنّها كانت تبدو أمام دجله وكذبه حمقاء، فيما كانت جدّتي ناديا تقول: لقد أحببته حبًّا كبيرًا. لكنّ ناديا قد ماتت منذ زمن، وأصبحت طيّ النسيان، غير أنّي أذكرهما بوضوح وأسمع جدّي يكرّرُ كلّ ليلةٍ اسمها بصوتٍ جهوريٍّ وناديا عجوزٌ بائسةٌ جانبه تعود من قلب النسيان، وهو قد تجاوز السبعين. أصبح قضيبه رخوًا جدًّا، وبالكاد يطلق البول. ومع ذلك لا يزال يراها في منامه كلّ ليلة، يحتلم بها، إنّه عجوز، لا يستطيع أن يحتلم! إنّه يضع الفلافل على النار، يسمع صوتَ قرمشةِ الفلافل، يتذكّر طعمه، يمضغه جيّدًا، ويتذكّر ناديا الفاعور بكامل أناقتها، تضع له مقطوعات لولي بينما يدفع أصابع قدميه داخل فمها، إنّها تلحس له قدميه كلّ ليلة، بينما بيبو نائم. وناديا لا تذكر سواي وبيبو، لكنّنا عالقون هنا الآن، ولا نذكر سواها، ناديا الفاعور، جدّتي، وأمّ بيبو، نحدّق في السماء، نركض حفاة، تطأُ أقدامُنا الأرض فنشعر بجفاءٍ بالتراب، نتذوّق الأرض، نلحسها، نتشبّث بها، فنشعر بفأسهم حين يقتلعونها منّا، نواصلُ التشبُّث، لقد وطئت أقدامُنا الأرض، لكنّ مشيئة الله، أن يطردنا من أرض فلسطين. والجرح يقف هناك، طالما كان هناك، وجدّي يُلوّح بيده من بعيد، وحيفا مدينة تبتلع نفسها، وأشجارٌ من الصنوبر تذبل، وشوارع يفرّ منها

الإسفلت، ولماذا نفتح الجرح مجدّدًا الآن؟ لأنّ هذا الجرح لم ينغلق أصلًا، والجنديّ لا يغادر من الأذن. هذا الجنديّ لا يفهمني، إنّي أجول في الذاكرة بحثًا عن ناديا الفاعور، لا عن مجزرة دير ياسين، قل لي أتعرف قاتل ناديا الفاعور؟ أتعرف أنّ صوتَ جدّي من طبقة التينور؟ أذكر كاحل جدّي، وجبهته العريضة، وشاربه الثخين، وصوته الذي يشق الحبال الصوتية معلنًا وضوحه بينما يحاول اللسان نطق الحروف، ولسانه بدوره يضرب سقف حلقه كي يقول كلّ الكلمات التي تبدأ بحرف اللام، أهمّها كلمة «الليل»، وأذكر بصاقُ الحمّص الذي يخرج من فم جدّي، وهو يحاول أن ينكح ناديا عند فاطمة الغول. ولماذا الغول؟ لأنّها تشبه الغول القادم، الذي يقف عند أبواب المدينة، وناديا تبقى عالقةً في ذاكرته، تمسح الأرضية، تطعم الأطفال، تكشط غرف النوم، تضيءُ الشموع، تشعل البخور، تغسل الثياب، تذهب إلى العمل في البنك المركزي في سخنين، ومن بعدها تكون جاهزة للنكاح في الليل. تستيقظ مجدّدًا، تذهب كي تطبخ الحمّص وفتات البرغل، وأنا أطوف الديار، وأختبئ تحت الأسِرّة، أسمع أصواتهم، ومن بعدها، أذهب نحو المطبخ كي آكل، أخفق البيض، ومن بعدها، أتركه على الطاولة، ألتهم كلّ الطعام في الثلّاجة، جميع أنواع اللحوم، بعضٌ من الدجاج المشويّ، وورق عنب بطعم أضلاع الخروف، إنّي أبلع كلّ شيء، إنّي أنفجر! وناديا تُفقِد جدّي عقلهُ، كان يأخذها إلى مصوّري الفوتوغراف، حيث يظهرُ شعرُها الأشقر الطويل تفوحُ منه رائحةُ الليل، آه ماذا يعني لك الليل؟ صبيّة تمشي ببطء، تركع تحت قدميك، تتوسّل وتسمع أنينها؟ أنت تعلم أنّ ناديا لا تشبه هؤلاء، إنّها من البيت إلى الغيط لا تعرف طريقًا آخر، وفرجُها نظيف، قلبُها نظيف. تأخذها إلى ساحة الحناطير، وهناك تحتسيان القهوة صباحًا والبيرة ليلًا. إنّك تراها وتسمعها جيّدًا، امرأةٌ شابّة تهربُ من أجلك، وهي قاصرٌ بالكاد

تقف على قدميها، تعمل كلّ يومٍ من دون كلل. وبالتأكيد لا تزال تذكرُ عندما اضطررت إلى المكوث في المنزل بعد أن حطّمت قصبة ساقك! ويخيَّل لي أنّ ناديا تهمس؛ **لا تكن مستهلكًا، قل عظم الظنبوب لا تقل قصبة الساق!** جدّي اسمعني، لقد عملتْ ناديا من أجلك ومن أجل أطفالك، وأنت مسلوب الإرادة، بالكاد تحدّق بها، تحاول أن تحدّق مثل النار، تواصل تعاطي المخدّرات. تضع هذه المخدّرات في فمك، تستنشقها، ومن بعدها تضرب ناديا ضربًا مبرّحًا، يا لقسوتك يا جدّي! لم تقدّر النعمة. ومثل الغانيات، تصيح طوال الليل، وناديا في حلقك، وأنت كسير الفؤاد. وأسمع الجنود يهمسون بأنّ لساني بذيء، وأنّي أطلق الشتائم بلا توقّف. أيّها التعساء، قريبًا سنموت، دعونا نشتم، إنّنا لا نستطيع سوى أن نشتم. يقولون إنّي أخدش الحياء، اللعنة على الحياء العام، نسيت، لكنّكم تنسون أن الله قد قال كلمته، وأنّ كلّ الأشياء محال الآن. كان جدّي يأخذ ناديا جولةً في سيّارته الحمراء الصغيرة، وأخبرها أنّ أولى سيّارات فلسطين ظهرت في القدس عام 1912، أي قبل ظهور اليهود بعقود، تطلق قهقهة. «أتعلمين أن السيارات هنا أقدم من اليهود»، إنّه يقصد قبل دولة إسرائيل لا اليهود، دائمًا يحوّر الأشياء، يقول لها: ناديا، من قال إنّه لا مستقبل لنا هنا؟ أجيبي يا حبيبتي، أجيبي يا فتاة النار. جدّتي، اسمعي! هذه حكاية عن الأشجار، والأشجار وحدها لا تموت، والدار وحدها لا تموت. أتذكرين دارنا؟ واللحاف المطرّز على شكل الخزامى؟ الأقمشة، الشاش، الألبسة، الفسانين، أكياس مصنوعة من قماش، التنانير القصيرة، عُلب التجميل، مرطّب الشفاه، مرطّب الجسد، مرطّب العانة، الأحذية، أحذية قديمة يسكنها النمل والديدان، أحذية جدّي، المعطف الأسود المهترئ؟ آه أتذكرين الشالات، أنت تحبّين الشالات كثيرًا، حسنًا، الأباجور المطعوج، الأضواء، الأنوار، صوت

الضوء يخترق جسدك، الثريّات الذهبية، الأواني، الصحون الملوّنة، الملاعق الهاربة من المطبخ، الشوك التي تنهار، الأطباق الشهيّة، رائحة السمّاق المحروق، رائحة قدميه الكريهة، الخراء الذي يستولي على جسده، وبنطاله الأصفر الذي يصبغ به كلّ عتبات الدار، وكلّ أرضيّات الغُرف، لكنّك تحبّينه! إنّه يقصّ عليك قصصًا تحبّينها ويُعمي بصرَك، إنّك تقبّلينه دائمًا، وتضعين قدميه داخل فمك، إنّك تتذكّرين قدمَيه جيّدًا، وتأكلين أظافره، أمّا هو فيتذكّرك عندما كنتِ عروسًا. وقفتْ على رأسَي قدمَيها مثل راقصة بالية، وتمايلت مثل راقصة تانغو، وضعت يدها على جسده، عريض المنكبين، شهم، رجل حقيقي، يملك شاربًا وقضيبًا لا بأس به. قالت لي ناديا إنّ مفهوم الرجولة حينها كان يحسب بتلك المعايير، ثُخن الشارب، وثقل الخصيتين، سألتها: هل تحبّينه؟ هل تحبّين جدّي؟ كانت تقول إنّها أحبّته كثيرًا، وإنّها هربت من بيت أهلها لأنّها تحبّه. لماذا أحبّته؟ إنّها قصّة طويلة، يطول شرحها، سأشرحها، لكنّي عندما أشرحها نكون قد طُردنا من أرض فلسطين. وأعود لأفكّر بيني وبين نفسي! متى احتلّ الرومان فلسطين؟ متى دخلت قوّات مومبي نحو القدس؟ أجدُ نفسي أنانيًّا، أفكّر فقط في ناديا، ولا أفكّر في تاريخ فلسطين الكبير الممتدّ من كنعان حتى يومنا هذا، أضحك بصوت يشبه النهيق، أشعر بأنّني غبيّ! وتسمع أصواتًا تقول الهولوكوست، وتقول إنّ كنعان ليست سوى تسميةٍ حمقاءَ لا معنى لها. أواجهُ ذاتي: لا تهربْ من السؤال. الآن قل لي ماذا تعلم عن العصر الروماني المبكر، الوسيط والمتأخّر؟ قلتَ إنّك درستَ تاريخ المنطقة جيّدًا، وإنّك تعرف فلسطين شبرًا شبرًا، وتعدّ مدنها على الأصابع، وترى فلسطين كائنًا صغيرًا هشًّا ولا تعلم شيئًا عن الدولة السلوقية، كيف هذا؟ وترى أنّهم يُقَسّمون فلسطين كلّ دقيقة وتبقى راقدًا بلا حراك. قسّم الرومان

فلسطين إلى خمسة أقضية مستقلّة إدارية، قضاء القدس، قضاء أريحا، قضاء جازر، قضاء صفورس، قضاء أماثوس... قسّم اليهود فلسطين إلى خريطة 48 ثمّ خريطة 67، ثمّ مناطق داخل الخطّ الأخضر، وخارج الخطّ الأخضر. لكنّك تنسى كلّ هذا وتفكّر في ناديا. تنسى الضفّة الغربية، الضفّة الشرقية، قطاع غزّة، عرب الداخل، المهاجرين، الشتات، لتروي قصّة ناديا، الفتاة التي تحلم بها كلّ ليلة. أقول لنفسي؛ ناديا جدّتي ووحيدتي، كيف لا أروي قصّتها! ويسألني الجنديّ؛ كم ساعةً يعمل الكاتب يوميًا؟ يقولون إنّهم يكتبون خمسة آلاف صفحة ويبقى مئاتٌ منها فقط، وأحيانًا لا شيء، يقذفون بها إلى النسيان، يمزّقونها جيّدًا، أو يلوكونها، ثمّ يبتلعونها، وبعدها تأتي دورة القيء، إنّهم يجترّونها، عملية اجترار. لقد بلعَنا الوطنُ قبل أن نبتلعه، لقد مزّقنا صورته فوق مدينةٍ تُدعى حيفا، بينما يسحبنا الجنود من الدار، تلك الدار التي نذكرها كلّنا كما نذكر ناديا الفاعور وهي تطبخ الحمّص وعيناها تحدّقان في نار، وأنا أفتح لها كربونات الصودا كي تقذف بها نحو الحمّص، لكنّي أسمعها كما أسمع أصوات الليل، لكن لماذا الليل؟ لأنّ الأصوات القادمة من الأحلام لا تأتي في وضحِ الصباح بل في أقاصي الليل. لكن ماذا يعني الليل لناديا، ولماذا تحبّ الليل؟ لكنّ الليل لا يأتي... يرفض القدوم. لأنّ الليل وحده يعلم بموتها، يعلم أنّها فارقت الحياة إلى الأبد. وأنا ألتهم كلّ خضروات المنزل، والخضروات تذبل. لكنّي ألتهمها كلّها، وناديا ميتة، لقد تركها الجنود هناك، أناديها، واسمها ناديا، ميتة في شارعٍ يُدعى عبّاس، كاحلها مُحطّم، جسدها مرميٌّ على الطريق، مبتورة الرجلين، مسلوبة الروح، مأخوذةٌ من بيتها. فتاة تطبخ الحمّص كلّ يوم، تخرج من بيتها كلّ يوم كي تُطعم صغارها. قد زجّوا بنا في السجن، وصوّبوا علينا أسلحتهم، أصبحنا عراة وهي تهزُّ خصرها، تحاول أن تحرّك ظهرها

ووركها، يبزغ ضلعها العاشر وقفصها الصدري، تترنّح، وتضع قدمَيها فوق ركبتي اليسرى، واسمها ناديا الفاعور وتقول إنّها أعلنت موت الإيمان في قلبها منذ مدّة. وأصرخ آه، حبّ فارق، حبّ غادر، حبّ مقذوفٌ، حبّ مثل النار، وجسدي يشتعل، أصبحت عاريًا، بينما يضربني الجنود على مؤخّرتي كأنّ الإيمان يموت في قلبي مثلما مات في قلب ناديا. أصرخ، وهم يقولون لي؛ إنّها دولة إسرائيل عنوة. ولا يحقّ لي أن أعيش فيها، إنّها دولة اليهود واليهود فقط. وأراها تسبح خلفي على أنغام فوريه، مثل سمكةٍ ذهبيةٍ كثيرة الحركة، تفرّ منّي كلّما حاولت التقاطها، واسمها ناديا الفاعور. لكن كيف تكون دولة إسرائيل، وأنا أملك صورة جدّتي بوشاحها الأحمر المطرّز بالورود داخل محفظتي؟ ومحفظتي بدورها تعود إلى جدّي، وجدّي بدوره يعود إلى الأرض والأرض بدورها تعود إلى الجميع. لقد ضاع الجميع، لقد ضاعوا، ضاعوا في السماء، وأصبحوا مبتوري الأيدي، بينما أتكوّر على ذاتي، وأصبح صغيرًا، وأرى جدّي يجري خلفها، يلهث ويُلاحقها مثل قطٍّ، وهي تهرب مثل الفأر. تجعله يتأجّج من الداخل، لقد أحبّها بشدّةٍ حتى أضاعها. يأخذ أنفاسه بصعوبة، إنّه جدّي حبيبي، وناديا جدّتي، إنّكم حمقى. ولا تعلمون أنّ طعامي المفضّل هو لحم الكلاب. لكنّكم تأكلون الألم، هيّا كلوا هذا الألم، امضغوا هذا الألم جيّدًا، دعوه يدخل إليكم، إنّه يمشي داخل أجسادكم، بين العروق، يدخل من الفم، يصعدُ إلى الدماغ، ألمٌ يستولي عليكم بعد؟ آه المعدة بعدها الأمعاء، وجدّي مثل النار، نسيتُ الكبد، إنّه يشتعل مثل النار، لقد انفجرت مراراتكم، هذا الألم حبيسُ الجسد لا يخرجُ من فتحة الشرج، يبقى عالقًا، مُلتصقًا، مُتشبّثًا بي، لا أستطيعُ قَلْعَه، إنّه لَدُن. وتبقى يا جدّي تُحبّها لأنّك مجنون، لأنّك جدّي، ولأنّك مجنون، ولأنّها خدعتك. لكنّك مخلصٌ لها، تحبّها لأنّك تملكُ قلبًا رقيقًا، يُشبهُ لغة صباح الدين، لكن

ما معنى أن يملك أحدنا قلبًا رقيقًا؟ لا يعني أن يحبّ بسهولة بل يعني أن يحبّ. وأن تحبّ ليس بالشيء السهل إطلاقًا، لكنّ قلبك يهمسُ لك. لا تصدّقْ قلبًا رقيقًا فهذا يعني أن تقذفَ بجسدِكَ نحو الفراش، وتحبّها لأنّك لا تعرف سوى أن تحبّها. ويحبّها بينما يعدُّ في ذهنه شوارع حيفا، يبدأ من شارع عصفور، ينتقل نحو الأوديـة، وادي الصليب، ووادي الجمال، ووادي السيّاح، يعدُّ الأزقّة، يصل إلى الكرمل، يعدُّ الدرجات، ينتقل مجدّدًا نحو الأودية، إلى وادي النسناس، ثمّ يبدأ بالبيوت، ثمّ المقاهي، ثمّ باعة الخضار وصولًا إلى محالّ الفلافل، يرى لغته ملطّخةً بالبُصاق، لغةٌ مقذوفةٌ من الشبابيك، لغةٌ تزحفُ على الجدران، لقد فقد لغته، لقد فقدها... لقد فقد ناديا معها، ووجدَ وطنه جثّةً هامدةً ساكنةً لا تتحرّك، ويراها شقراء قادمة، مثل «آدا» تتوهّج، وينتصبُ عضوه لكنّه يبقى حُلمًا. إنّها حلمٌ بعيدُ المنال، كلّ حياتنا مجرّد حلمٍ عابر، لكنّها حلمٌ لا طعمَ لـه، حلمٌ لئيمٌ يحرمُه التنفّس، ويخنقهُ، إنّنا نختنق، وأنا أختنق هنا، أغرق، أغرق، والليل يصرّ على أن يبقى في السكون، وجدّي كسير الفؤاد وناديا جدّة جميلة لا تُنسى، وجنديّ يصرّ على أن يسأل أسئلته ويقول؛ والآن كيف تذكر حبيبك؟ آه حبيبي، إنّي أنتظره مع قدوم الليل لا الفجر، لأنّي في الفجر أموت! إنّي أحبّه لكنّي أخافه، وأعلم أنّه حبيبي لكنّه يشبه جدّي. وأراه قادمًا مثل فارسٍ على جواده، وبيده سيف. لقد ترجّل من الترام. قويّ، عريضُ المنكِبين، يلوّحُ لي بيده، إنّني أريده. لم أعد أحتمل. هذا عبءٌ لا يُطاق، أن أجـدَه يسبحُ وحيدًا، يُدخِّنُ ويسكرُ ويدخلُ الكنيسةَ، يُصلّي ويخرج، ومن ثَمَّ يتّجهُ إلى المسجد الأقصى بعدما أنهى صلاته في كنيسة القيامة. ولا أقربه البتّة، ويهمسُ لي، بكلماتٍ تشبه كلمات بيبو. الكنيسة في وقتها المحدّد تجعلني بائسًا، شيءٌ مؤلم، ولماذا لا يأتي الليل؟ أنا أنتظر الليل، كيف لا يأتي الليل؟

أحبو نحوه، أزحف على جسده، أتسلّقه، لا يراني. أسحبه من يده وأُخرجه من الحافلة، وآخرُ يبصق في وجهي ويركلني، ويقول: «لقد عبّأْنا البلد». لكنّي أتخيّله بعد ذلك يسحبني نحو الزقاق المُقفِر نحو العَتمة. أشلح له، ويشلح لي، في منبت لسانه تعيش العصافير، وتحت إبطه أرى الشمس، لقد صعد جواده وتركني، وأهمسُ له في دهليز الأذن؛ اجعلني حبيسًا، وسأقرأ لك ألفَ ليلةٍ وليلة، وسأحبّكَ كثيرًا، وسأشلحُ لكَ، ومن بعدها سأنساك. وأمرُّ ويأتي مُجدّدًا وأخضعُ له مثل الرقيق، وأجعلُ قدمَيه داخل فمي، ألحس قدمَيه، يصلُ إلى نشوته عندما ألحس له قدميه. إنّي أحمق، أنتظره، ويعود بي إلى عالمٍ لا أعرفه، لا أريده. يأخذني من يدي مثل الصبيان، ويجعلني في حيفا من جديدٍ، أكتشفُها من جديد، أذهبُ إلى حاراتها وأزقّتها وسفوحِ جبالها، وشوارعها المضيئة ليلًا. أشمُّ رائحة طعامها، وترابها مثل صبيٍّ فقد ذاكرته ووَجدها. ويأخذني نحو دير «قلب يسوع»، ونلهو ويُقبّلني ونتناول منقوشةً طافحةً بالزعتر. نمرُّ بشارع الجبل، نذهب إلى الحيّ الألماني. نقطعُ ستيلا ماريس، نصل إلى الكرمل الفرنسي، وهناك يُطعمني كريبًّا فرنسيًّا مُفعمًا بالشوكولاتة، ويلحسُ شفتيّ، نصل إلى حيّ الكبابير، وننزلُ من وادي الجمال. كيف يأخذني هذا ويرحلُ بي، وأنا جالس في مكاني، لا أفعل شيئًا؟ وبالكاد أجيد الحركة! أجسادنا بالكاد تتحرّك، إنّنا نجيدُ الحلم فقط، لعلّنا فقدنا القدرة على الحلم أيضاً، لعلّ حُلمنا ظُلمة مخيفة، لكنّ الله قرّر أن يتركنا في ظُلمته. أنا وحبيبي في عتمة قاتلة، عتمة تبدأ من الأقدام لتذبح الأعناق. يستأنف الجنديّ؛ أخبرنا ماذا يعلم عنك حبيبك؟ لقد أخبرني حبيبي أنّه يعرفُ قصّتي وجذوري وعائلتي، والحمار الصغير الذي أطلقوا عليه اسم الأرض المقدّسة. وكنّا نسيرُ معًا من الجبل إلى البحر، وكان لدينا زجاجتان من البيرة وأكوابٌ صغيرة وبعض الملابس المتّسخة.

كان يجب أن نُغيّر ملابسنا ثمّ طلبتُ منه إيقاف السيّارة، وخلعتُ قميصي، يرى حلمتيّ، ويشتهيني مثل كلب. لديّ عانةٌ شقراء وحلمتاي مثل الفراولة. ثمّ نمرُّ من البحر متّجهين إلى الحيّ الألمانيّ حيث نقيم، ويضع يده الكبيرة داخل فمي، إنّك تحبّني أنا أعلم هذا، لكنّك تتركني، وتتركني لأنّك تحبّني، وتتركني لأنّ حبّك لا يجيد سوى سياسة الترك. وهكذا أصبح متروكًا، منسيًّا، وحيدًا، لا أعرف سوى البكاء. دعك من حبيبي! ركّز! أيّها الجنديّ، إنّها حكاية عن ناديا الفاعور لا عن حبيبي، أنتَ تهرب من الحكاية! إنّك وضيع!، لقد كان جدّي يأخذها كلّ يوم جمعة إلى غزّة، إنّها تحبّ غزّة، حيث تأكل السمك المقليّ، وتقضي الإجازة في تلّ الهوى. لقد مصّت له قضيبه كثيرًا في تلّ الهوى، إنّها سعيدة، تُشعرها غزّة ببهجةٍ كبيرة. لكنّها سرعان ما تشتاق إلى حيفا، وتُصرّ على العودة. تعود إلى حيفا كي تطعمنا، وتخرج في ساعات الفجر كي تطبخ الحمّص، وتتّسخ يدها، وتعود مساءً إلى البيت، ونراها مُنهكةً تطلب النجاة، نُحضِر لها الشاي والطعام، وترتمي في فراشها مثل القتيلة. تخبرنا قصصها مع جدّي كلّ يوم. تقول إنّه شرموط لكنّها تحبّه. تقول إنّه ذات يوم ذهب كي يلحق بالخائن الأكبر الذي وافق على اتّفاقية أوسلو. ذهب وتركها وحدها في حيفا. كان جدّي يعمل في صحيفةٍ مُهمّة. لم تكن الكرمل بل صحيفة أخرى، وعلّقوا إعلانات وبوسترات في جميع أرجاء المدينة، تقول: «جائزةٌ كبيرةٌ لمن يعثر على الخائن الكبير الفارّ نحو بلغراد». وكلّنا يعلم بأنّ ناديا لحقت بجدّي رغم أنّه كان خائنًا أرعن، فلماذا نلوم جدّي على اللحاق بالخائن الأكبر؟ ونعلم أيضًا أنّ جدّي كان يتعاطى المخدّرات ويحبّ أولاده، ويعطيهم أموالًا طائلةً كي يذهبوا إلى رحلات المبيت إلى إيلات مع المدرسة. لكنّنا عالقون هنا، ويُخيَّل لي أنّ كلًّا منّا سيروي قصّته، أنا أحكي قصّة ناديا، وناديا تحكي

لنا قصّة جدّي، وجدّي سيحكي لنا قصّة الهارب، كلنا نحكي القصص هنا، عالقون، وسنموت قريبًا. يطلع الفجر، نشاهد الفجر، نراقبه، نرى درجات ألوانه، الوردي ثمّ الأحمر ثمّ الأصفر، ثمّ تتلاشى كلّ الأشياء، وتبقى ناديا وحدها تبكي وتقف على مرمى العين. قالت لي ناديا إنّ جدّي كان مُطّلعًا على تاريخ الكرد، وفي رومانيا كان يرى الأتراك والكرد مجتمعين في الحانات يتراقصون. إنّها لا تشعرُ بالغيرة تُجاهه، لقد أحبّته كثيرًا، لكنّه زير نساء. وهذا طبيعي في تلك الأيّام، تقول ناديا. وتقول إنّ جدّي يشبه الله. كيف؟ إنّه مثل الله، صوته مثل صوت الله. لكنّ الله لا يملك أيّ حنجرة. كيف يكون صوت الله؟ من أين يبزغ؟ ورآها جدّي فوق المسرح، لقد صعدتْ إلى المسرح، وكان حلمُها أن تصبح ممثّلةً مثل آدا، فعلًا إنّها ناديا لكن كانت تريد أن تصبح آدا. وأفكّرُ كيف للبحر أن يلوكَنا هكذا، ويرمي بنا على شواطئ حيفا، ونرى جنودَ اليهود قادمين، ونحن نصرخُ، ويكبّلون أيدينا، وهم قادمون من الصحراء، يَبزُغون من بطن الفجر، وناديا تنهضُ من أحشاء الفجر كما تنهض الأعشابُ من جوف الأرض. والفجر الذي يتبدّل كلّ دقيقة، مع كلّ تغيّرٍ مناخيٍّ، ويُصبح لونه قريبًا من لون جسدها، إنّها من شعاع. وفي عروقها تجري دماءٌ تُطلق شعاعًا... متوهّجةٌ، متأجّجة. أنا أبحثُ عنها، إنّها جدّتي، اسمها ناديا الفاعور، أحاول أن أكتب قصّتها، أحاول أن أحميها، إنّها لا تراني، لأنّي مختبئ، ولأنّها ميتة، ولأنّي هنا، أراقب تحرّكاتها، أعرف زلّاتها، أحصي خيباتها، إنّها تسمع لولي، «هكذا كان ابنها الأصغر بيبو يقول؛ لقد أخذها منّا اليهود. وأذكرهم ثلاثة فقط يلعبون في حيفا. ناديا وبعلها، وابنها بيبو. كيف نعيش الآن من غير ناديا؟ أنا لا أستطيع أن أعيش من دونها. والآن ناديا قد ماتت. نحن لا نعيش من دون ناديا. إنّها تسكن في الهواء، ونجدها أحيانًا في الطعام، وفي الألوان كلّها، وأراها فوق الأطباق، في

خزّانات المياه، على الأشجار، فوق الأسطوانات القديمة. والفجر حين تلوكه ناديا بين أسنانها يصبح عالمًا نضرًا بهيًّا لا يشبه أيّ عالمٍ آخر. وعندما تتماهى مع الفجر، أي إنّها عندما تصبح تلك الفتاة، القادمة من الفجر، يُولد ابنها الصغير بيبو، تُحبّه كثيرًا، ناديا لا تموتي! إنّ من يذهب نحو النسيان لا يعود. أنت شاعرة، ولن تكوني إلّا شاعرة! لقد قتلوا ناديا، أولئك المجرمون، بينما أجول في البيت، لقد أخذوا فلسطين، أرض جرداء، لا تزال تضيء وتَتوهّج، أرضٌ لا تزال تأخذ أنفاسها، وناديا في عقلي، أذكرها، هي وحدها، ناديا تصيح كلّ ليلة حين ترى كابوسًا: أسرع بكأس الماء. تقول إنّها تخاف من الموت، إنّها لا تريد أن تموت. ولن أدعها تموت، سأقصّ حكايتها. بينما أختبئ عنها، وأذكرها في البيت، تجيد حياكة الصوف، أراها على الأريكة تقرأُ بروست، ومن ثمّ في المطبخ، تغسل الأطباق، وحين تغضب تكسر الأطباق، وحين تذكر جدّي تلحس الأطباق، وحين تلحس الأطباق، أذكر حبيبي. ثمّ أذكره جيّدًا، قادمًا من بعيد، يكسر باب الباحة، وصوته يشلّ حركتي. جنديّ ضخم، ببزّة عسكرية متّسخة، ويقول لي؛ من فضلك افتح عينيك الآن، لا يمكنك أن تحلم بعد الآن، سيُلقى القبضُ عليك إذ واصلتَ الحلم، استيقظ الآن! لن يكون لديك خيارٌ آخر، سنضع ذلك القضيب في فمك، هل يمكنك سماعي أيّها الحمار الصغير؟ لا، لا أستطيع سماعك، لا أستطيع الشعور بك، من الصعب جدًا الخروج من هنا. لقد علقتُ، ستأخذُ مُسدّسك وتطلق النار على صدري... أعلم أنّه لا يمكنك العيش معي، أنت خائفٌ، أنت جبان. أستطيع أن أرى ذلك الخوف في عينيك، لقد قلتَ إنّني لا أنتمي إلى هنا بعد الآن! تطردني، وأخرج مثل الدجاجة الخائفة، أنا لستُ عديم الفائدة، أستطيع محاربتك، ولكنّي مُرهقٌ ومشلول، لأن هناك فتاة في بيتنا، مقتولة، مذبوحة من العنق، ليست ناديا بل

أخرى! وأسمع الجنديّ يقول: أعرف جيّدًا جدًّا أنّ الربّ غير موجود، غير أنّني أؤمن مع ذلك، بأنّه أعطانا أرض إسرائيل الكبرى. تعرفُ ذلك جيّدًا، أليس كذلك؟ – يُحاول أن يحكي قصصه –، ثمّ يقول: «إنّ هذين جالوت وداوود، لقد برز جالوت من جيوش الفلسطينيين، وأتى لمحاربة داوود وقتْله كما تقول التوراة. لكن داوود أمسك السيف وقتَله بلا رحمة. جالوت طويل القامة يرتدي خوذةً وبزّةً من حديد، ودرعًا قويّة يصعب اختراقها، أمّا داوود فكان شابًّا شهمًا، يرتدي ثوبًا باللون الأحمر مُلتفًّا حوله. أتعلم ماذا يفعل داوود في أيّامه العادية؟ يرعى الغنم، ويُربّي الأبقار في بيت لحم. بيت لحم قرب أرضٍ تُدعى أورشليم. جالوت لا يعلم أنّ الربّ يحمي داوودنا، ملك مملكة إسرائيل المستقبليّ، مملكةٌ كبيرةٌ تتوسّع لتصبحَ هكتاراتها لا تُعدّ ولا تُحصى، تُدعى إسرائيل، أو الأرض الموعودة كما نردّدها نحن شعب الله المختار. أمّا داوود الصغير النحيل الجسد، فقد خرج من قلب المعركة كي يقاتل جالوت. وقف الجميع بذهول؛ كيف لشابٍّ صغيرٍ نحيل يكاد يقع، أن يغلب جالوت صاحب الجسد الضخم؟ لكنّ داوود مؤمنٌ بالله، إنّه يؤمن بأنّ الله سيبقى معه، ولن يخذله. أمسك السيف، وكانت ضربته قاضية، كأنّها ضربة الربّ، وفسخت رأس جالوت من مكانه، وصرخ بنو إسرائيل، وراحوا يهتفون، لقد انتصروا على وحشٍ كبير يُدعى جالوت، وبهذا يكون داوود ملكًا على بني إسرائيل. ويعلن أنّ إسرائيل هي الدولة الوحيدة، هي المستقبل. مساكين أنتم لقد طُردتم من أرض إسرائيل، حيث كان يسكنها الشعب الفلسطيني، وأتى هذا الشعب من جُزر اليونان وقبرص نحو أرضنا قبل 1200 سنة قبل الميلاد. لقد سكنوا في أرضنا وعبدوا الإله الأم. إنهم من شعوبِ البحر، وقد حكموا أرض إسرائيل لسنواتٍ طويلة. كانت وليمتُهم المفضّلة لحمَ الخنزير، على عكس

الإسرائيليين... أقول؛ أتعلم بأنّ مشكلتك الوحيدة تكمن في الداخل؟ داخل الأشياء المظلمة. إنّك لا تدعني أُكمل قصّتي! إنّك تحبسني هنا في الظلام، وتطلب منّي أن أحكي لك حكاية ناديا الفاعور. لكنّك تستمرّ بالقول أورشليم! والآن ما هي أورشليم! أنا لا أعرف أرضًا تُدعى أورشليم! فكيف لك أن تعرفها وأنت الذي لم تأتِ سوى البارحة! اسمعني، إنّها لا تزال تجلس هناك تحدّقُ في تلك المرآة التي أهداها لها جدّي عندما كانت طفلةً قاصرًا، لا تزال جميلة، يفوحُ صباها، إنّ رائحتها الآن خُزامى، والأرضية كلّها صُبغت بالأصفر، والجدران توشك على الانهيار، وصوت النيون يزنّ في دهليز أُذنها. لقد أخبرتُكم أنّ ناديا كانت حاملًا عندما هربت نحو بيت فاطمة الغول، وبعدها للزواج من جدّي، كنتُ قد سألتُها مرارًا: «لماذا أردتِ الزواج به؟» فقالت «كنتُ فتاةً غبيّة، وقد أخذوا طفلي منّي، اغتصبني حاكمٌ كبير في البلاد، وبعدها جعلني أحملُ بطفله في بطني. ثمّ اضطررتُ للهرب منه، هربت نحو بيت فاطمة الغول، بينما لحق بنا الحاكم كي يأخذ طفلي، كنت في الخامسة عشرة من عمري، صغيرة، خجولة وسخيفة، ضعيفة بلا حيلة، أصرخ والشاحنات تشق طرقات البلدة بينما أسمع بكاء طفلي، وبعدها تزوّجت جدّك». لكنّها لم تكن سخيفةً، فهي ذكيّةٌ بما يكفي لاتّخاذ قراراتها، أين طفلها؟ لقد كبر الآن، لقد مات الحاكم ورأته بعد أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، لكنّها لم تبكِ قطّ. ناديا لماذا لا تبكين الآن؟ يجب أن تبكي الآن، إنّك تقابلين ابنك المفقود بعد فترة غيابٍ طويلة، عليك تقبيله، ضعيه فوق صدرك، أعلم أنّك لا ترتدين حمّالة صدر، ولا تحبّين حمّالات الصدر، فصدرك لا ينضبُّ داخلها، لكنّ هذا هو ابنك، يقفُ أمامك. يمكنه دسُّ يده داخل صدرك، يحقّ له مصّ حلمتيكِ، لا تكوني خجولة! اسمعيني ناديا. الأرجح أنّك فقدتِ قدرة السمع، ناديا ما طول قامتك

بالفراسخ؟ أكرّر اسمها ناديا الفاعور، وماذا نعلم عن ناديا سوى أنّها جدّتك، وأنّها ميتة الآن يقول الجنديّ، لا إنّها حيّة، إنّها لا تموت. إنّها مثل حبيبي لا تموت. ومن داخل كلّ الأشياء الممزّقة تقول الأصوات؛ إن كان الله بجلالة قدره يموت، فكيف لناديا ألّا تموت؟

CANTO III: «You should pay attention to my feet; you should picture them!

في البدء كانت الكلمة، أمّا في النهاية... فالعالم... بلا نهاية، طوبى للمطوّبين الثمانية، أبنائي جميعهم. والآن من أين أبدأ يا أطفال؟ أغلقوا الأبواب أوّلًا، ثمّ تعالوا معي. اسمعوا، أنا طفلة صغيرة ومدلّلة، تزوّجت صغيرة، حملتُ صغيرة، ومتُّ عجوزًا. أقيس كلّ الأشياء بالفراسخ، جميلة، صهباء، وعانتي ليست خشنة. أفكّر، أرقص، أخطو خطواتٍ صغيرةً. أجنُّ في الليل، أتكوّر على ذاتي حين يحلّ الفجر، إنّي لطيفة، أحبّ الرجال وأفضّلهم طِوال القامة. دارنا كبيرة، تحيط بها أزهارٌ من النرجس، وبيبو وحيدي يسقي الزرع كلّ صباح بينما أحبُّ الرجال، وأفضّلهم دون ثياب. بيبو يعلم أنّي أحبُّ الرجال، لكنّه لا يعلم أنّي أحبّ رائحتهم أكثر. الرجال عادةً سفلة، وأنا جميلة، حرام أن أموت عذراء. يقولون إنّ المرأة التي تضاجع رجلًا بعد طول انتظار يولدُ طفلها مسخًا. ويقولون إذا ضاجع الرجل امرأة حبلى فالطفل يولد مثل الغول، وطفلي الأول كان تمامًا مثل الغول. لقد أتيت به من بيت فاطمة الغول. كان في القماط، وقال إنّي غانية وادّعى أنّي جدّته، أوه لا، لست جدّته، ولا يمكنني أن أكون جدّته. هو يبقى مستيقظًا لا ينام، ليس بشرًا البتّة، إنّه مسخٌ. أراهُ يطوف البيت كلّ ليلة، ويأتي نحوي كلّ مرّة بهيئة مختلفة. يقول إنّه شاعر، وأحيانًا إنّه امرأة، وأحيانًا يقول إنّه شمولي الجنس pansexual. إنّه يطوف كلّ غرف المنزل، مخلوقٌ

مسكين والديدان تخرج من ثيابه والصراصير من مهده. أراه يشيب، وينكمش كلّما اقتربت منه، يصيح ويستمرّ في البكاء، يا له من مسكين. إنّه لعنة حلّت علينا من بيت فاطمة الغول. أحيانًا يفرُّ من قبضة يدي. ألحقه في الديار، يخرج من الباب بينما يسير نائمًا، تكاد تدهسه السيّارات. إنّه يجول الديار كلّها وحيدًا وصوته يختنق. إنّه ليس إلّا مسخًا يبحث عن الحبّ، ويصرخ كلّ ليلة ويَدّعي أنّه يرى امرأة تطوف كلّ ليلة في بيتنا، وأنا حمقاء لا أصدّقه البتّة، لأنّي طفلة صغيرة ومدلّلة لكنّي أموت عجوزًا. وأذكرُ أنّ الساعة كانت تشير إلى نحو العاشرة عندما أتى الجنود إلى منزلنا، ويُخيَّل أنّ السقف المقشور طلاؤه، سينهار فوق رؤوسهم حين تطأ أقدامهم المنزل، بينما أهربُ. وأنّ ضربات الأقدام الثقيلة ستنهال عليهم، ويعلمون أيضًا أنّ من يذهب لا يعود، وأنّ البارحة، مثل اليوم، مثل الغد، مثل كلّ الأيام. وأنّ المنزل الذي تُهدّ أعمدتهُ لا يُبنى مجدّدًا. وأنّ هذا البيت هو بيت وحيد وبعيد جدًّا. وعندما تنظر إليه من رأس الشارع، تراه بيتًا فقيرًا وحزينًا لكنّه صامدٌ بشموخ، تمامًا مثلما بدت فلسطين وحيدةً منذ أن قلّت عذوبة بحيرة طبريّا في ذلك الزمن البعيد، حيث كان كلّ شيء يُقاس بالفراسخ، وكانت الدار دارين: إيوان وغُمدان... والملك ملكين: ساسان وقحطان، والدنيا كلّها خراسان، وكنتَ بعلي الوحيد، الذي لا أعرف غيره، وأعرف أنّك تحبّ النساء وتلحس أقدامهنّ وتلهث أمام أفخاذهنّ. لكن قل لي الآن، كيف أبدأ بسرد كلّ تلك الحكايات؟ من نهايتها المأساوية؟ أم من بدايتها؟ لعلّي أبدأ من منتصف الحكاية. من الصعب أن أصف كلّ تلك المأساة وحدي، كيف أذكرك وحدي؟ وكيف لي أن أذكرك إلّا غاضبًا ومنتشيًا؛ تقصّ خصل شعري؟ والآن أنا عجوز شمطاء في انتظار الموت بينما زوجي وحيد، ببنطالهِ باللون الأصفر، يحدّق في قدميَّ وأنا أكشط الأرضية، وبنطاله الأصفر يصبغ

الأرض، لقد أحببته بشدّة، لكنّه خائن. أذكره وهو يقصّ شعري من جذوره، أذكره يقرأ لي الألعاب الخطرة، وأذكرني عالقة في جوفه. أذكره شابًّا قويّ الملامح، عريض المنكبين، ثخين الشارب، يسحبني من شعري، ويجعلني تحت قدميه، ثمّ يضع أصابع قدميه في فمي. يحبّني لكنّه يضربني ضربًا أليمًا، أراه يسحبني من الشراشف الملوّنة، يجعلني طريحة الأرض، أصرخ في وجهه لكنّه يقف فوقي، ويرقص فوقي، يهزّ كتفَيه، يطلق ضراطًا من داخل أعماقه، ويضحك. أرى قدميه تغطّيان وجهي، وأنا مشلولة لا أقوى على الحركة. أصرخ مجدّدًا، إنّه يحاول أن يقتلني، يحاول خنقي، يريد أن يضع عضوه داخلي. يجعلني حاملًا كلّ سنة ونصف، يصرّ على أن أنجب له. يحبّ ذاته، يتمسّك بذرّيته، يقول إنّه حبيبي، وإنّي دونه لا أكون شيئًا، وإنّي دونه مجرّد غانية قادمة من يثرب. قد أتى صاحب البنطال الأصفر بي من الزقاق الضيّق. مدلّلة وصدري كبير لا ينضب وعاهرة شهيرة أعمل عند فاطمة الغول، لكنّي طاهرة الجوف. كان يضع قدميه في فمي، يصرّ على تلك العادة. يحبّ أن يشعر بدغدغة أسناني، ثمّ يقبض عليّ من رأسي، ويدفن وجهي في الأرض، ثمّ يسحبني مجدّدًا نحوه، وأنا ضعيفة، أجهشُ بالبكاء وأرى عينَي بيبو تفرطان في البكاء. أرى بيبو يحدّق في فمي، يرى فمًا كبيرًا يحوي داخله قدمًا. كان عندما يسحب قدمَيه، يستمرّ في هزّ كتفَيه، يرقص فوقي. أذكره منتشيًا، يأتي كلّ ليلة نحوي غائبًا عن وعيه. أركله في بطنه، لكنّه لا يستيقظ. يزحف نحوي، يرتمي فوقي، أحاول أن أوقظه، أرشُّ الماء، أفتح الراديو، أُشعل الأنوار، أحرقُ البخور، أخفق في إيقاظه. وأسمع أصواتًا خافتةً قادمةً من الشوارع، تلك الأصوات القادمة من بعيد تستقرّ في الأذهان، أصواتٌ في طريقها إلى البيت، أصواتٌ مثل الأصوات التي يطلقها من جوفه وهو نائم، أصواتٌ مثل الخشخشة، يخشخش في أذني. خشخاشٌ في أذني هو، وأراه منبطحًا

على بطنه، يطلق شخيرًا حادًّا، ويواصل نومه منتشيًا، أرى يديه، شعره، أنفه الطافح بالشعر، ذقنه، وأحاول أن أفتح فمه. أرى حلقه، أحدّق في حنجرته، إنّي عالقة هناك في الحنجرة، لا أتزحزح، أضع يدي داخل فمه، أحاول أن أنتقم، لكنّ الانتقام محال، إنّه منتشٍ، لقد شاب شعره، أصبح عجوزًا. ألمس جسده الكبير، أضع أذني على أذنه، لا صدره، أحاول أن أكتشف سمعه، من الركاب والسندان والمطرقة، وأذكره وهو يلعب مع بيبو ويدغدغ خاصرته، أذكره كما أذكر الليل، وأذكر الليل كما أذكر النوم، وأذكر النوم عندما أذكر أولادي كلّهم، أمل، عيّوش، هامو، بيبو، آسو وسامو. وفعليًا لا أذكر سوى أولادي ومنزلنا، وكانَ منزلًا كبيرًا تغطّيه الستائر المطرّزة بالأحمر والذهبي، وأذكر أنّ بيبو أحبّ أبنائي إليّ، لا يشرب اللبن إلّا باردًا، وأنّ عتبات المنزل، عتبات ثقيلة تزن طُنًا أو أكثر، وأنّ البلاط، هو بلاطٌ فارسيٌّ أتى به زوجي من بلاد فارس، وأقمشة الأسِرّة أتى بها من الحجاز على ظهور المواشي، أمّا الملاعق والشوك، فقد أتى بها من إسطنبول، ومنزلنا هو أكبرُ الأمكنة التي عرفتها – رغم صغر حدوده التي لا تتجاوز حدود كتفين – وأنّ فلسطين هي البلدُ الوحيد! وأنّ أورشليم هي مملكة المجانين! وأنّ زوجي يحدّق في الأشياء من بعيد، وهو يعلم بأنّي أذكره هو أولًا بوضوح تامّ، زوجي، بعلٌ باللون الأصفر، حسنًا أنا لا أذكره كما يذكرني، هو لا يذكرني سوى غانية عند فاطمة الغول. لكنّي أذكره، وكان يجلب حبوب الصويا دومًا إلى المنزل، فهو لا يستطيعُ هضم حليب الأبقار والماعز. وكان يُفضّل حليب الصويا باردًا، أتذكُرُ يا حبّ؟ لعلّك لا تذكرُ. لكنّي أراك واقفًا هنا أو هناك تراني من ذلك المقهى البعيد، أو لعلّه المقهى الذي أمامك. مقهًى تُحبّه كثيرًا، وتفضّله على باقي مقاهي حيفا كلّها. تقفُ في ذلك الصفّ وتقول حين يأتي دورك: «كافيه لاتيه بارد مع حليب الصويا». إنّك تشربُ الصويا كثيرًا، تكادُ الصويا تخرجُ

من أنفك. أصبحت مَعِدتُك طافحةً بالصويا، ممتلئةً مثل برميلٍ كبيرٍ سِعَتُه تفوقُ آلافَ الأكـواب. تنظرُ من حولك جيّـدًا، وتأخذ قهوتك المخلوطة بالصويا، وتذهب كي تجدَ مقعدًا ملائمًا كي تقرأ الألعاب الخطرة. إنّك تحبّ الصويا، فهي لا تسبّب لك مشكلاتٍ في الهضم، سهلة الاستخدام وغير ضارّة. يدخل حليب الصويا من فمك، ويخرج من المسالك البولية من دون أيّ تعثّر. يا إلهي كم الصويا شيءٌ عجيب، وإنّك تحبّها كثيرًا. وتراني أنا زوجتك قريبةً منك. وأنتَ تراني مُشعّةً بهيّة، أجلسُ أمامك بثقة. إنّي حلوة، حلوةٌ جدًّا مثل قصب السكّر. لا، أنا أحلى منه كما يقول غارسيا لوركا. لكنّني لا أُفضِّل الصويا كثيرًا. أفضّلك داخلي، في حضني، لكنّك تخرج نحو المترو، مترو قاضي كوي، تاركًا المقهى وتاركًا زوجتك، كي تلحق بتلك الفتاة الجميلة ذات رائحة السكّر. صحيح، كيف نشمُّ السكّر؟ قُل لي من أنتَ تحديدًا، هل بدورك تعود نحو ماضٍ ما لا أعرفه؟ يُمكنك أن تكون كلَّ شيءٍ. أنتَ تعلم هـذا، لكنّك تبقى زوجـي، وبهذا تكون قد خسرت وربحت في الوقت عينه. تبقى مثل قصيدةٍ حزينة تقول: **«هاتِ يـدَك... هاتِ جرحَك... إنَّ الليلَ حزين، لقد ذهبت مع الغسق، هاتِ يدك، يداي لا تـعـرفـان يـديـك، لأنّ يـديـك مـدنّـسـتـان بـالـعـار، يـداك تصبحان رجلين»**. وكيف يكون الليل شاحبًا هكذا، وبائسًا ينزف؟ ينزفُ على طول القصيدة!؟ إنّك ترى هذا الجرح، يقف أمامك، تفعسُه، تبصقُ في وجهه، تجرحه أكثر، تحاول لَكْمَه... لكنّه لا يستجيب، يبقى ثابتًا. جرحٌ كبيرٌ لا ينطفئ. إنّك تلحسه وتلمسه، لكنّه جرحٌ يُذكِّرُك بجميعِ أحزانِك. ذلك الحزن الذي يكون حزنًا قويًّا، فلا أحد يسأل عنك بينما تأكل وحدك، لا أحد ينتظرك في المنزل بينما تكون منهمكًا في العمل وتعود في منتصف الليل ببساطة لأنّه لا أحد يملك مفتاح منزلك، لا أحـد يريد أن يـراك بحُلّتك البهيّة لأنّـه ببساطة الجميع يكرهك ولا

يريدك. ذلك هو الحزن، عندما تكون هنا، مع الحشود، والأصوات... هي تلك الأصوات المألوفة، لكنّها أصواتٌ تنسى من تكون، إنّ هذا هو الحزن الحقيقي، هيّا هيّا، اشرب الصويا الآن لعلّك تنسى. أنت تخدعُ نفسك بمشروب الصويا. تهربُ وتركضُ بسرعة، ويخرجُ أنفكَ من مكانِه. إنّه يفقدُ أهمّيته. أنفٌ مليءٌ بالأوساخ. تضعُ إبهامك في فتحة أنفك اليمنى، وتقتلعُ الأوساخ، وتضعُ هذه الأوساخ في مشروب الصويا، بعدها تبتلعه. يا لك من مقرف. إنّك كئيب، ألا ترى هذا؟ انظر، إنّك تذهب إلى المرحاض، ومن بعدها تقف على قدميك وتذهب بعيدًا. صحيحٌ، يُخيَّل لي أنّك خرجتَ من المقهى، كيف ستذهب إلى المرحاض؟ لعلّه مرحاضٌ آخر، حياةٌ أخرى، جرحٌ آخر لا يتزحزح، يبقى عالقًا. وأنت خائن، وتفكّر في نساء رومانيات، وتفكّر فيها تحديدًا طَوال الوقت، وتبحث عنها كلّ يوم... في الصحف، في المجلّات الرخيصة منها والثمينة، في المحالّ التجارية، في الشوارع، في المقاهي، عند بائع السجائر أو عند بائع اللحوم، ذلك الذي يضع يديه على قطع اللحم الحمراء ويتحسّسها جيّدًا ثمّ يشطُرها. تراها تلحقُك، لكنّها تبقى جاثمَة فوقك. تبقى يداها فوق وجهك، وأناملها تمتدّ على طول جسدك النحيل. أنت تلمسُ أطرافها، إنّك تحبّها كثيرًا، أليس كذلك؟ ولا تستطيع التخلّيَ عنها. لكنّها استطاعت أن تتخلّى عنك مثل دودةٍ عالقة في الأنف. إنّك وسخ، مُتّسخ... لقد جعلوك متّسخًا وخائنًا، لكنّي أغفر خيانتك كلّها من أجل بيبو، وبيبو يشدُّ أزرار بنطاله، وأنتَ تريدها ملكك وحدك، وتريد أن تسحبني من شعري أمامها، إنّها تضغط على جرحك وأنت تنزفُ. تُهرولُ نحو كلّ تلك الطرقات، وترى وجهها ينتقلُ إلى كلّ مكانٍ. وجهها يظهر من قعر الإسفلت، وأنت تحبّها. هيّا اعترفْ، إنّك لا تزال تحبّها، تحبّها أكثر منّي، أنا زوجتك ناديا. وتذكرُ ساعة يدها، تذكُر عقاربها، شكلَها ولونَها ورائحة حزامها

الجلديّ. إنّـك تلحسُها مثل حشرةٍ تلحس أعشابها. تلحسُها جيّدًا ولسانك يشعرُ بطعم جسدها الذي يقع بين المالح والحلو، ثمّ تقرّر أن تلتهمَها، مثل كائنٍ يلتهم كلّ شيء. وتشعرُ برنين الهاتف، تضغطُ على الـزرّ الأخضر. إنّـك لا تفهم تلك التكنولوجيا بعد. إنّها صعبةٌ عليك، لكنّك مُضطَرٌّ لأن تستخدمها. يجيبُ ابنك بيبو: «لقد نفد حليب الصويا من الماركت. هناك حليب البندق وحليب جوز الهند، وحليبٌ خالٍ من اللاكتوز، أيّها تفضِّل؟»، وأنت تجيبُ بعنفٍ: «ماذا؟ انتهى حليب الصويا؟ كيف يجرؤون؟ كيف ينتهي حليب الصويا من السوق؟ هذا مستحيل!». لقد أغلقتَ الهاتف، وأنـت تشعر بخيبةٍ من هذا العالم. لا حليب صويا لك هـذا الأسبـوع. كيف ستعيش من دون الصويا لأسبـوعٍ كامل؟ لكنّك وصلتَ إلـى البيت وخلعتَ حـذاءك، وشعرتَ برائحته الكريهة. خلعت البوكسر من ماركة كالفن كلاين، وشممتَ رائحةَ عانتك المقزّزة، وقرّرتَ أن تدخل حوضَ الاستحمام. إنّك تضعُ سائل الاستحمام على عضوك وأردافك وشعرك وأنفك، وتفركُ مؤخّرتك جيّدًا، وتضع إصبعكَ داخل فتحتك الشرجية، وتنظّفها من الـخـراء، وتـخـرج مـن حـوض الاستحمام هـذا، وتـضـعُ المنشفةَ حول خصرك. بعدها تقرّر أن تفركَ أسنانك. وتذهب إلى السرير وتراني مثل الملاك مضيئةً، وأسحبُك من يدك، أنا حبيبتك ناديا، هربتُ من أجلك. وتركتُ ولدي الوحيد ينزف، لكنّك تخونني كلّ ليلة مع غانيات فاطمة الغول. وأبقى أذكـرك مثل كفّ اليد، إنّـك تضيعُ في اليد وبنطالك الأصفر يلطّخ الأرض. أذكـرك مثل الأشياء التي أرفض نسيانها. أراك تأخذني نحو تلّ الهوى في غزّة، أراك في أطباق الحمّص كلّها، وأنت تهزّ كتفيك. يجب أن أعترف بأنّي لا أرى سواك، لا أعرفُ سواك رجلًا، وأذكرك كما أذكر آخر أيّامي في حيفا. أذكرك تلاحق خائن الوطن، ذلك الذي وافق على اتّفاقية أوسلو، ذلك الذي أهلكنا كلّنا. «وأعلم أنّي فتاة

عذراء، اسمي ناديا، لا ترى سواك أرضها، لا ترى سوى فلسطين أرضها، تلوك الفجر في أسنانها، تنهض من قلب الفجر، تشقّ الطرق، تزحف، تبكي، تصيح في الليالي الباردة، وأنّي فتاة لا تستطيع إبعاد نظرها عن الشاطئ، والشاطئ بدوره يفيضُ، والنهار يسقطُ على رأسي، والليل لا يأتي، لقد قطعت شارع عصفور، وأهالي حيفا يحاولون أكل الكستناء. يقلعون القشور ثمّ يلتهمونها ساخنة، يتلذَّذون بطعمها تذوب في الفم، يبصقونها، يُعاودون مَضْغها، يلحسونها جيّدًا، إنّهم غارقون في الأكل، صغارٌ، أطفالٌ، صبيانٌ، بناتٌ، نساءٌ من دون حمّالاتِ صدور، رجالٌ يَحلُّ عليهم الشيبُ مبكرًا، أطفالٌ لا يذهبون إلى المدارس، يغلون الحجارةَ ويشربون الماء، أو قد يأكلون بقايا الخبز الجافّ، لقد بكيت. لكنّي لم أفعل شيئًا، عادةً لا أفعل شيئًا سوى النواح، ومضاجعة الرجال، لأنّي غانية لم تتخلّص من عذريتها بعد. سيقتلني اليهود، أنا أعلم هذا، لأنّي خبّأت الوثائق، الوثائق كلّها. وأعلم أنّ القدماء اختلفوا في هيئة الأرض وشكلها، فذكر بعضهم أنّها مسطحة في أربع جهات؛ تُوزّعُ في الشرق والغرب والشمال والجنوب، قال بعضهم إنّها كروية، وزعم بعضهم أنّها مثل المائدة، وآخرون قالوا إنّها لا تشبه أيّ شيء، وإنّها أسطوانة حجرية معلّقة في السماء، وإنّ بعض الأرض يمسك بعضًا، وزعم البعض أنّها أوتادٌ، والله جعل لكم الأرض بساطًا. لكنّي لا أصدّق كلّ هذا، أذكرك كما أذكر الأرض، لأنّها لا تشبه سوى جسدك، ذلك الشيء الذي يتمدّد ويتقلّص، ويبقى فوقي، يمضغني، ويبصقني، ويقولون إنّها كالنار والريح، وإنّها ممزوجة من جسمين، لا ثقيل وخفيف فقط، بل جنّة وجحيم. ويقول البعض؛ طول قطر الأرض بالفراسخ ألفان ومئة وثلاثة وستّون فرسخًا وثلثا فرسخ، ودَورُها بالفراسخ أشياء وأشياء أخرى، وهناك من قال إنّ الأرض أجزاء، وإنّ هذه جحيم، وإنّ السند والهند بلاد لا تطأها أقدامنا، وإنّ بلاد الترك

والصين تحتلّ معظم يابسة الأرض، وإنّ الروم لن يمرّوا من خراسان، وإنّ لعنة كبيرة أتت من الشمس، أغرقت البحر في الملوحة. تلحّ أسئلةٌ عليّ؛ ماذا يوجد فوق الأرض، ماذا يوجد تحت الأرض؟ الجحيم؟ لا، هذه هي الجحيم، إنّها الجحيم بعينها، محال أن تضمحلّ. ويبقى البعض يقول بأنّ الأرض مستديرة، الأرض كبيرة. وهي برٌّ وبحرٌ، أمّا البعض الأخير فقد قال إنّ الشقّ السوري الأفريقي، سيشقّ أرض فلسطين وينهكها، وسيقتل عرب العائد، عرب البلاونة، عرب الحويطات، عرب النصيرات وآخرين. ومجدّدًا وبينما أفكّر في الأرض وكيفية دورانها، أخلعُ ثيابي وأرميها على السرير. ألمحُ طيفك لكنّي أعلمُ أنّك غادرتَ منذ زمن كي تلحق بالخائن. أدخلُ الحمّام وأغطسُ داخل حوضٍ كبير، وأرى تعاسةً كبيرةً تُحوّط جسدي. إنّي ألحسُه وأتذوّقُ طعمه، إنّه مالحٌ جدًّا. كنتَ تقول لي إنّ جسدي صغيرٌ يُلتَهم بسرعة، ويشبهُ عُقلة الإصبع، وكنتُ أقولُ لك إنّ جسدكَ عميقٌ مثل المحيط، وإنّك تملكُ صدرًا كبيرًا يتّسعُ لجميعِ النساءِ الوحيداتِ اللواتي يغفون على سواحلَ جرداء، دون رجلٍ قويٍّ الملامح. أنتَ رجلٌ عريضُ المنكبين ويبزغُ من السماء مثلَ الأعجوبة. لكنّك ترى هذا الخيط الذي يُشبهُ الحرير ويسمّونه الحياة يكادُ ينقطعُ، ويلتفُّ حول عنقي مثل شِرنقَةٍ صغيرةٍ حادّةِ الخيوط، كي يقطعَ أنفاسي ويطيحَ بي في قاعِ المدينة. مدينةٌ لا تزالُ تصرخُ باسمِك، إنّي أسمعُها جيّدًا، إنّها تفتقدُنا، وتشتاقُ إلى صراخِ صوتِكَ، صوتُك هذا الذي كان يخرجُ من معدتِك مرورًا بالحنجرةِ، يبزغُ من أحبالِك الصوتيةِ الرقيقةِ مُمزِّقًا أشياءَه. وتُناديك مدنٌ كبيرةٌ تقعُ على الشاطئ، وتلوِّحُ لك، وأنتَ مغادرٌ وعلى ظهرِك شيءٌ كبيرٌ يشبهُ الأحزان، ومدنٌ أخرى تنتظرُ حضورَكَ، تنزلقُ من السَّطحِ وتقعُ أرضًا مثل نُدَفِ الثلجِ الذي يُغطّيها في الشتاء. إنّك لا تذكُرُ تلكَ الليلةَ والقمرُ مُحاقٌ والثلجُ يكسو سيّارتنا، وأنفاسُك

تضربُ زجاج النافذةِ بصَخَبٍ، وأنتَ تُحملِقُ إلى ذلك الرجلِ الذي يمشي وحيدًا، ويأكلُ شطيرةً صغيرةً من سمك التونا. ألا تشمُّ هذا؟ إنّني أشمُّ تلك الرائحةَ حتّى يومِنا هذا. إنّكَ تراهُ يتسكّعُ ويتمايلُ ويكادُ يقع، تمسحُ النافذةَ بيدِك وتَرى أنّه يحملُ زجاجةَ نبيذٍ سوداء مُنقَّطة باللونِ الأحمرِ الداكن. ومن بعدِها تعودُ وتُقبّل فمي، تضغطُ على شفتيَّ وأرى تلك التجاعيدَ التي تنبثقُ من ابتسامتك. وتقول لي أوسلو! وتغادرُ وتتركُ حياةً كاملةً وراءَ ظهرك. تفرُّ مثل خسيسٍ، جبانٍ ووضيع، مثل كلبِ شوارعَ يتضوَّرُ جوعًا ويهابُ كلابًا أقوى منه. ألا ترى هذا؟ إنّ أحزانك ستلاحقُك في كلّ مكان، إنّها مثلُ وصمةِ العار، تلتصقُ مثل البزّاقِ على سفوحِ جسدك. لكن كيف أردّدُ كلّ تلك الكلماتِ وأنا أرى أطرافَكَ تنمو مع الأحزان؟ أضعُ أسطوانةً تقول: **«وإن رحلتَ بعيدًا وتركتَني مع وسادتي وحيدًا، أبقى أنتظرُك وأنسى كلَّ أحزاني»**. إنّه ماضٍ واحدٌ، لكنّه مُحمَّلٌ بآلافِ الذكريات. إنّكَ تتلاشى معَ عتمةِ الظلام، أو تسيحُ مثل مثلّجاتٍ أذابها صيفٌ حارٌّ شديدُ اللؤمِ. وجسدُكَ الكبيرُ هذا قد بدأ يتقلّصُ ويختفي. إنّ رحيلك يخنقُني، ووجودُك ليس إلّا شيئًا يدقُّ العظامَ كالمطحنة. نعم لقد وجدتُها، إن كانَ رحيلُك مؤلمًا فوجودُك مطحنة. أتسمعُ صوتَ قرقعةِ عظامي؟ أنا أسمعُ صوتَ شهقتي، وأذكرك، وأنا مثلك أرفض أوسلو. لكن أذكر كلّ شيء تقريبًا، أذكره أيضًا في الرسائل، أذكر أنّه كان يسرق الرسائل، لا يكتبها، يحاول أن يكتبها، لكنّه يخفق. لقد أحببته بشدّة، فتحت له ساقيّ طوال العمر. وأذكر صاحب البنطال الأصفر يقول أو يسترق وأتخيّله يملي عليّ بهذه الكلمات والحمّص يخرج من بين شفتيهِ بين كلمةٍ وأخرى: «يمكنني القول إنّني عرفتها عبر المراسلة أو الشعر أو المجلّات، وبدأتْ ترسل إليّ قصائد مثيرة جدًا عن الشبق والاغتصاب، وكونها مشوبة بذهنية طفيفة حيّرتني قليلًا. ركبتُ السيّارة وتوجّهت شمالًا،

لا نحو حيفا بل عبر الجبال والأودية والطرق العامّة، بلا نوم، صاحيًا من السُكر، مطلّقًا للتوّ، بلا عمل، هرمًا، متعبًا وعديم الحيلة، وبودّي النوم لخمس سنوات أو عشر على الأقلّ أو مثل نوم أهل الكهف. لكنّي أخيرًا وجدت نزلًا، في بلدة صغيرة مشمسة بجانب طريق موحل، بعيدة عن حيفا. جلست هناك أدخّن سيجارة، أفكّر في نفسي – لا بدَّ أنّك مجنون، كيف تحبّها – ثمّ خرجت متأخّرًا ساعة عن موعدي. وأذكرها شمطاء لعينة، بعمري تقريبًا، ليست مثيرة جدًّا. أعطتني تفّاحة فجّة، مضغتها بأسناني الباقية. كانت تموت بداء مجهول، شيء مثل الربو. قالت إنّها تريد أن تخبرني سرًّا، قلت، أعرف، أنتِ عذراء، في الخامسة والثلاثين من عمرك، أقول، أنتِ فتاة من أورشليم، اسمك ناديا الفاعور، ثمّ أخرجتْ دفترًا، عشر قصائد أو اثنتا عشرة قصيدة، نتاج حياة كاملة، وكان عليّ قراءتها. حاولت أن أكون لطيفًا، لكنّ القصائد كانت بمنتهى السوء، ثمّ أخذتها إلى مكان ما، إلى حلبات الملاكمة، وسط غيوم من الدخان. سعلتْ بشدّة، وظلتْ تراقب الناس حولها، بينما أراها تحدّق في الملاكمين ثمّ ضغط الملاكمون على يديها، ودعوها نحو الحلبة. لكنّها رفضتْ وسعلتْ مجدّدًا، وعلى الرغم من أنّي شعرت بنوع غريب من الإثارة بحق تلك الليلة على التلال، سألتني... ألم تعرف يومًا الإثارة؟ قابلتها بعد ذلك، ثلاث مرّات أو أربعًا. ساعدتها في بعض قصائدها، وأقحمت لسانها نصف المسافة إلى حنجرتي، وعندما تركتها، كانت لا تزال عذراء، وشاعرة رديئة جدًّا. والحقيقة أنّي عرفتها عند فاطمة الغول لا عن طريق الرسائل. وأعتقد أنّ امرأة لم تفتح ساقيها طوال خمس وثلاثين سنة، سيكون قد فاتها أوان الشعر... والحبّ». وأنا التي بقيت طوال تلك الأعوام كلّها، أفتحُ ساقيّ لرجال مساكين لا أعرفهم، وأريد أن أصبح شاعرة، شاعرة كبيرة، تطوف العالم وتشعرُ به شيئًا صغيرًا يقطن في عقلها، شاعرة تحلم كلّ يوم بشعر آخر

تكتبه في اليوم التالي، لكنّك تقول إنّي لا أزال عذراء، وإنّه لا يمكن لأيّ من العذارى أن تكون شاعرة، ما أحقر هذا، لماذا؟ كيف؟ لماذا؟ إنّي أدفع ثمن عذريتي! ما أقسى العالم! وأنت تصرّ على أن تتخلّى عنّي، لأنّي عذراء! هل قرأت أشعاري! هل قرأتها؟ أعلم أنّي غانية لكنّي شاعرة في ذات الوقت، إنّك تجعلني أشعر بالحيرة، تقول إنّه محال، لا يمكن لغانية مثلي أن تصبح شاعرة! ولا يمكن لأيّ من العذارى أيضًا، لعلك تقصد عذرية أخرى، ليس ذلك الشيء المحيط بفرجي! لكنّي محدودة الفكر، ولذلك لن أكون شاعرة أبدًا، لأنّ الشعر يبدأ هناك، في مكانٍ بعيد ولا ينتهي، يستمرّ في الدوران، لا يتوقف ويصبح الشعر شكلًا من أشكال الهندسة المعقّدة، صعبة ولا يمكن حلّها! أنت وحدك من أنقذني! يجب أن تتذكّرني دائمًا، يجب أن لا تنسى من أكون، أنت بعلي الوحيد! لن أصبح شاعرة، أقسم! يجب أن أموت وحدي! وبينما أموت أشعر بهِ ينام على حافة صدري مولولًا وباكيًا، إنّي أستيقظ ممتلئةً بالخزي، أحاول لملمة أشيائي عن الأرض. لقد خلعتُ حمّالة صدري، ووضعتها فوق خرائط فلسطين المتراصّة بعضها فوق بعض، خرائط 48 وخرائط 67، لكنّي أشمّ رائحة عرقه، ألحس إبطه بينما أرى الخرائط وأضع داخل حقيبتي أشياء تشبه الكتب، وأشياء مثل الواقي الذكري وكريم مرطّب لزج أدهن به عانتي قبل ممارسة الجنس. يجب أن أغادر، لقد هربت من المنزل، يجب أن أموت كي يعيش أولادي. لقد تركت بيبو وحيدًا، وأخذت معي الوثائق كلّها. وبينما أهرب، يلحقني المسخ يحاول أن يقبض عليّ من عنقي، لكنّي يجب أن أبقيه بيننا، لأنّ تربية طفل يتيم كانت شرط خروجي من بيت فاطمة الغول، وقد أصرّت فاطمة الغول على إعطائي طفلاً يشبه المسخ. فمٌ كبير يلتهم دجاجة كبيرة، يدان كبيرتان قويّتان، أنفٌ معقوف، عينان تكادان تنفجران من كثرة احمرارهما، وشعرٌ خشن، وقضيبٌ ضامر،

إلهي، مستحيل! كيف أضعه في مهده، ماذا أهدهد له؟ كيف يكفّ عن البكاء؟ لقد شاهدت عينيه تنفجران، أحيانًا أراه يشبه الضفدع وأحيانًا يجهر بأسنانه مثل التمساح. إنّه وحيد، أعلم هذا، وأنا لستُ إلّا طفلة صغيرة مدلّلة، أنقذها زوجها من بيت فاطمة الغول، حيث كنت غانية شريفة. نعم غانية شريفة، غانية لا تزال عذراء. إنّ فاطمة الغول قاسية جدًّا، تصبُّ سخطها فوقنا، وأنا صبيّة لا تزال في ربيع أيّامها، أتعلّمُ الصنعة حديثًا. قل لي؛ ألا ترى أنّ العالم أصبح قاسيًا جدًّا؟ وأنت تجول في تفاصيل الرياح كلها، تشعر بالرياح تمرّ من فوقك. إنّ جريمتي في هذا العالم هي نفسها جريمتي في ذلك العالم الذي لا تراه. عالم يتلاشى، يختفي بينما تخونني في فناء الدار، وأنا طفلتك الوحيدة المدلّلة، التي تلبس لك التنانير القصيرة في الصيف، وفي الليل تشعر بها مثل الرياح تجري فوق خاصرتك، فيما الكلاب في الشوارع تنبح، والليل يضيء، ألا ترى أنّك لم تعرفني قطّ. لا تعلم كيف أغفو. لا تعلم كيف أنام، وما الذي يطوف في ذهني بينما يصبغ بنطالك الأصفر الأرض. أنت تضع قدميك في فمي، ولا ترى طفلتك الصغيرة المدلّلة، إنّنا لا نستطيع أن نكون أنفسنا من دون الآخر، وأنا لا أكون شيئًا سواك. لكنّك تلوكني بين أسنانك، أذوب بين أسنانك، ريثما أعلق في الحنجرة. أعود من النسيان، أقطن هناك، داخل النسيان، بينما يوشك الليل على السقوط. وأنت لست إلّا خائنًا أرعن، لكنّك أيضًا طفلٌ صغير، تنتظر حكاية آخر الليل، لكنّي سئمت. ويُخيّل لي أنّك حفظت كلّ قصصي بعد مرور العمر، لأنّي بعدها أختفي داخل الصمت ولن تراني. أنا حبّك الوحيد، ذلك الذي لا يُنسى. إنّك ترى جسدي، لكنّك لا تشعر به، لا تشعر بتلك الأشياء التي أقصاها يكون الصمت، وجسدي وعاء يملأه الصمت، لكنّك تلوك هذا الجسد بين أسنانك، إنّك تنسى، وتقرّر أن تغفو، وتخفق في سماع صوت قدمَيها

بينما يطوف مسخ فاطمة الغول في المنزل. إنّها حبيبتك التي تخونني معها، إنّك لا ترى سواها، بينما أنتظر القطار. لقد فاتني القطار، إنّي أموت، لكن قبل الموت أحاول اللهو هنا في أحضان رجلٍ، خصيتاه توشكان على الوقوع. أتعرّى فوق جسده مثل البلهاء. لكن كيف تعيشون هكذا مسلوبي الهويّة والوطن، كيف تأكلون طعامكم، وبأيّ ملاعق؟ بأيّ يد؟ اليمين، اليسار؟ وكيف تضعون الواقي الذكري على رؤوسكم؟ I HATE YOU MOTHERFUCKERS أقولها بلغة إنكليزية ضعيفة، لأنّي أستحي قول تلك الأشعار في لغتي. إنّي أعي هذا، لقد أخذت جسدي وفتحت النافذة محاولة القفز. أحاول الخروج من النافذة وصدري كبير، يمنعني. أحاول عصره مجدّدًا، إنّه يدخل لكنّي أخدشه قليلًا. لقد جرحت صدري وتدفّق الدم على يدي. ألحس الدم، وأقفز نحو الطابق الأرضي، وبحوزتي الوثائق. يلحقني الجنود، فأهرب. لكنّي أشعر بالجوع، إنّي أتضوّر جوعًا، وأبحث عن دكّان صغير. معدتي تؤلمني وأبحث عن ضمادات، كي ألفّ جرح صدري بها. أشعر بالخوف، وقدماي ترتجفان. فرجي يشعر بالاحتراق، لقد اخترقني عضوه غير المختون، وانسال لعابي على طول جسده. اشتريتُ بعض المعلّبات، معلّبات السردين والتونا وحبوب الذرة، تلك التي لا تُهضم بالمعدة. لقد شاهدته وهو نائم، إنّه يغطّ في النوم العميق، ولا يستيقظ. شعرت بفحولته واقتادني نحو أماكن معزولة في جسدي، لقد اكتشفتُ جسدي من جديد معه، ذلك اللسان الذي يلحس كلّ شيء، ويخوض في كلّ شيء، هذا الشيء اللزج الذي يمرّ من فوقي، وأشعر بدغدغة غريبة عندما يقترب من سرّتي، لكنّي أدفعه وأحاول النهوض، وبحوزتي الوثائق. وأسأل نفسي ما هو الفرسخ؟ فقد يزعم البعض أنّ قطر الأرض، ألفان ومئة وثلاثة وستون فرسخًا، والفرسخ هو ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذراع، فالفرسخ اثنا عشر ألف

ذراع، والذراع أربعة وعشرون إصبعًا، والإصبع ست حبّات شعير مصفوفة بعضها إلى بعض. لقد كان قضيبه فرسخًا ونصف فرسخ، وفرجي نصف فرسخ. لكنّ كلينا سوف يهبط فوق أورشليم، وكلينا يملك قلبًا فارغًا متعطّشًا للحبّ. وكلانا مسكين يسير في شوارع وحيدة لا يسكنها إلّا إنسان حقير يشكو طوال الوقت. يا لنا من قافلة حمير تسير دون أن تعي طريقها، إنّي آكل بشراهة غير عادية. ألحس قاع المعلّبات، ألحس بقايا الطعام. ذلك الطعام الذي يبقى في نهاية كلّ وجبة، طعام يبقى عالقًا في الأواني، وترميه المطاعم في القمامة عوضًا عن إطعامه للقطط والكلاب أو لصبيّة، صدرها كبير مثلي، خسرت لتوّها زوجها وبيبو. يشكّل لعابي شبكة عنكبوتية ذات خيوط غريبة. تعلمون كيف يكون شكل اللعاب عندما يلتصق بالأواني، إنّه يعلق بها، وتصعب إزالته، وفي عقلي قصيدة رديئة كتبتها، تقول:

where are you motherfucker
I miss you motherfucker.
You should pay attention to my feet;
You should picture them!

لقد تركت زوجي يقيس طول قطر أورشليم، فهو لا يقيس أورشليم إلّا بالفراسخ. لقد تركت أولادي، لكنّي لا أترك بيبو. إنّي أموت الآن، وماذا يعني الموت هنا في شارع عبّاس من دون زوجي وبيبو، كيف أموت؟ لم يكن هناك أيّ صوت في الخارج، سوى صوته في أذني، لكنّه بات بعيدًا الآن، ويُخيّل لي أنّ البعد بيننا أصبح آلاف الفراسخ، وأنّ صوته لا يشبه أيّ صوتٍ عرفته من قبل. إنّه صوتٌ يبقى في الأذن، لا يحلّ عن قامتها. أرى النوافذ مفتوحة على طولها تحدّق فيّ، أرى فاطمة الغول تطلّ من الشبابيك، وتحدّق في البندقية داخل فمي، وتطلق قهقهة حادّة. أراهم يحطّمون ذاكرتي، ذاكرة مرميّة

على طول الشارع يراها أطفال الحيّ، تراها فاطمة الغول. كيف يراني بيبو مرميّة مثل لحم رخيص؟ وكيف للنجوم أن تسطع في عينيّ بعد الآن؟ لقد أتى الليل، إنّه حقًا الليل، إنّه يلحقني، يأتي من خلفي، يحاول أن يتشبّث بي من الخلف، جسدي آيل للسقوط، لا أريد أن أقع، أراه ورائي، يقترب، يصير على جسدي، وأذكر قدمَي زوجي في فمي. أذكره يقصّ شعري. أهرول مسرعة نحو شارع عبّاس، أشعر به فوقي، إنّه يقبض على شعري، ألهث، يدفع بي أرضًا. أقع أرضًا، ولا أرى سوى بيبو. ولا أرى سوى قدميه داخل فمي، يشلح بنطاله، وجنديّ يهودي لعين يبول فوقي، وأشرب بوله، يجعلني أبلع بوله، وأذكرني عالقة في حنجرته. وأتخيّل عيّوش أصبحت عروسًا، وأمل كلّها دماء، وهامو تتزوّج من جديد، وبيبو مسكين، وسامو مثل أبيه منتشيًا وآسو يعيش بعيدًا عنّا. أشعر به فوقي، أشعر ببزّته العسكرية تحتكّ بي، يفتّش جسدي، يحاول أن يجد الوثائق. لقد دفنت الوثائق، دفنتها في الكرمل الفرنسي. أذكر كلمات بيبو، بيبو يجب أن أتركك وحيدًا، يجب أن تنجو، يصوّب السلاح نحوي، بندقية كبيرة أقيسها بالفراسخ. وأسمع آخر كلمات بيبو في رأسي، أسمعه يقول شيئًا عن الذهاب، لا أريد الذهاب إلى الكنيسة، ويقول بيبو، هكذا يقول الشاعر يا أمّي: من المهمّ أن تنحّي مشاعرك جانبًا، حتى أثناء الحلاقة أو طبخ الفاصولياء بالثوم، بمقدورنا نحن وبحوزتنا القليل من الشجاعة معرفة ذلك الجنون الذي يُدعى الاشتياق. من المرعب أيضًا معرفة أنّ جزءًا ما منك، أتمّ دورته مثل ساعة لن تدور مجدّدًا، متى توقّفت عن العمل. لكن الآن، هناك تكّة تحت قميصك، وأنت تحرّك الفاصولياء بملعقة. حبّ مات، حبّ فارق، حبّ آخر، أورشليم تنهار. آه الحبّ بوفرة حبوب الفاصولياء، نعم لتحصهم الآن حزينًا. حزينة مشاعرك تغلي فوق اللهب، نحِّ هذا جانبًا ودعك من وهم أورشليم، وانظر هناك،

يا... يا للمشهد المثير الآخذ بالاحتشاد، آخر مرّة تظهر فيها حيفا، من فوق، أي من الأعلى. الرنين المثير لتلك النواقيس المسائية، هنا أو هناك مع صيحة مسائية يائسة، مع أولى خطوط الفجر، إلى الأمام أنت تسير نحو الغسق، بعيدًا عن الغابة. أنت تسير، لكنّك ترى أيضًا المصابيح آسرة الجمال، المصابيح التي تضيء الآن، لكن لا أحد يعلم أنّك هناك، هناك في الشارع، ترى حيفا وهي نائمة، حيث لا صياح يأس حتّى، حيث لا يراك أحد، حيث أنت وحدك مع الغسق... أنت... حين تصبح... أنت والغسق معًا، على نفس عتبة الحزن». لكنّ بيبو، بيبو لا يدري أنّه حين يمشي، تضحك مدينة بأسرها، والخيّاطات من خلف الزجاج يلوّحن بأياديهنّ ساخرات، والنهار يسقط، وبيبو لا ينهار. لكنّ بيبو بكلّ جدّية، يحيّي الجميع وينحني إجلالًا، ثمّ يمضي في طريقه، والنهار يسقط. ويظن أنّه وسيم مثل أبولو لكنّه يقفز مثل الدجاجة. أنا لا أراه سوى أبولو. بيبو ابني ووحيدي. يمشي وفوق معطفه يرتدي السترة، فوق الحذاء يرتدي الجوارب. بنطاله بلا أزرار لذا يشدّه بالخيوط. ولولا ذلك العرج اللئيم، لأصبح بيبو الإسكندر الأكبر. لكنّ بيبو مظلوم، خذلته الحياة، لأنّ الحياة الأولى مثل الحياة الثانية، مثل الأخيرة، وبيبو يسقط بينما يترنّح مثل الدجاجة. بيبو شخصية كرتونية في كتاب! يا له من كتاب! ليست الألعاب الخطرة، بل كتاب آخر مليء بالرسوم. وشعرت بأنّني أريدُ بعلي، أريدهُ حولي. لقد تخلّى عنّي مثلما تخلّى الله عن أرض فلسطين. وأريده أن يظلّ معي، أنْ يعلقَ بي مثل دودة القز، أن يلتصقَ بي إلى الأبد، أن أكتب عنه طَوال الوقت، على جميع صفائح هذه الأرض، أن أحلم به، أن يظلّ متشبّثًا بأفكاري التي تجول في عقلي خلسةً، وتتراكمُ مثل العفنِ العالق بالأشياء. أن أدعوه في ليلة غسقٍ غيرِ هادئة لكن خالية من البشر، كي يتحسّسَ جسدي، وبيده السميكة تلك؛ يقبضُ على

عنقي، ويمرّرُ أنامله بخفّةٍ على جسدي. وأقول يجب أن تظلَّ هنا، أن تبقى معي، هنا في هذا المنزل، بعيدًا عن أورشليم حيثُ تغسل أنت أواني قد بصقتَ عليها، وبقي لعابُكَ عالقًا بها، وأنا أرتدي ثيابي المبلَّلة بالحبّ، ثياب مثقوبة وممزَّقة، أو ثياب ثخينة أطاحَ بها العرقُ في سلّة الغسيل. مثل ثوبٍ قديم أريدك. ثوب واحد لا غير، رديء كريهُ المظهر، أظلُّ أرتديه طَوال العمر، وأقرأ لك أشعارًا رديئة. إنّي شاعرة رديئة جدًا، كنّا قد مارسنا أشياء كثيرةً بالأمس، أذكر أنّك وضعت في فمي قطعةً صغيرةً من الكرز، وأسمع الكرز يحتضر، الكرز يصرخ، ثمّ سحبتَني نحوَك، وأمسكتَ يدي الصغيرة، ووضعتَها مُقابلَ كفِّ يدك الكبيرة المليئة بالشقوق. إنّها الأحزان تبزغُ من داخلك، أنتَ غيرُ قادرٍ على الحركة، مشلولُ الجسد، وتفكّر في أشخاصٍ قد أحببتَهم قبلي، ومارستَ الحبَّ معهم على هذا السرير قبل أن آتيَ بدقائق. أستطيع أن أشمّ الروائح جيّدًا، وأعي أنّك لا تراني. مَنْ منّا يستطيعُ أن يرى أشياء غير موجودة؟ إنّني غيرُ موجود بالنسبة إليك، وأنفاسُك التي تبقى جاثمةً فوق صدري لا أطيقها، لكن كيف؟ أنا لا أعرف من أكون، أنا لا أعرف من أكون حقًا، لقد شاهدتُك وأنت تخلعُ ألبستك الداخلية، ورأيتُ جسدك يانعًا مثل صفائحَ بيضاء خاليةٍ من التشوُّه، ورأيتُ أنّ جسدي يُشبه الحلزون، شيءٌ لزجٌ مليءٌ بالصَّمغ، قابلٌ للالتصاق بأيِّ إنسان. لقد كنتَ تعيسًا حين أتيتني، مكسورًا من الداخل، تشبّثتُ بكَ مثل الطفيليّات، واكتشفتُ أنّ التعاسةَ ليست بالشيء السيّئ على الإطلاق، إنّها أفضل إنسان يغادر عند مَفْرقِ الطّرق يردّد؛ أوسلو، أوسلو... ويترك رسائلَ مليئةً بالغبار لا معنى لها على منضدةٍ قديمة، مثل دبّوسٍ حادٍّ يخز القلب...! والآن وداعًا يا أكاذيبُ عشتُها! لا مكانَ لك بعد الآن، يمكنك الهربُ أو النسيان. ووداعًا لأيّامٍ لن تعود، أيّامٍ تبقى مكانها، جالسةً على صفحات لا تتمزّق. إنّي

أراك وفمُك مفتوحٌ تدخلُ فيه سمكةُ حوتٍ كبيرة، لكنّك تُفضّلُ تقيّؤ الأحزان عِوَضًا عن أكلها. ويا لها من «ليالٍ» حزينة وطويلة، تلك التي تمشي مبتورة الأرجل على طرقات بعيدة لا تلمحها عين، وتتمزّق فوق مدينة كبيرة لا وجود لها تُدعى أورشليم. ليالٍ تتّسكع في مدن يحكمها إله واحد ترك كومة من الشياطين تزحف نحو أسوار أورشليم، يغرقونها ويلعنون شرفها. وأسمع بيبو يردّد بهمس: الكنيسة في وقتها المحدّد، ترعبني. أراهُ أمامي، مثل الشيطان، أراه يغلي، يضع بندقيته في فمي، يحاول أن يطلق الرصاص. يقول، ناديا الفاعور، كيف تحبّين الموت، رصاصة في الفرج؟ يضع البندقية في فرجي، يضغط بشدّة، لكن يفضّل أن يحطّم دماغي أولًا، ويصرخ، هيّا يا رخيصة اللحم، هيّا أيّتها الغانية الحزينة، ضعيه في فمك. وأرى عضوه داخل فمي. وأرى تصريح التنظيم والبناء، معلّقًا على جميع جدران حيفا، وفاطمة الغول تحدّق في موتي ضاحكة. كنتُ قد دفنت الوثائق، ومحال أن يهدموا بيتنا، محال أن تنهار فلسطين. أستطيع أن أموت الآن، إن كان الله بجلالة قدره كتب علينا أن نموت، فكيف لشاعرة رديئة وبغيّ قادمة من يثرب مثلي ألّا تموت؟ هذه هي داري، أنت لا تستطيع أن تحطّم داري، هذه الدار داري، هذه الدار ليست إلّا داري، هذه الدار الكبيرة هي داري أنا، وأنت لا تستطيع أن تأخذ منّي داري، لأنّ هذه الدار هي داري، هي داري أنا وحدي، هي دار أولئك المطوَّبين، وهذه الدار التي أمامك الآن، لا تستطيع أن تسكنها، لأنّ هذه الدار هي داري، ولأنّها داري، يعني أن لا أحد يمكنه أن يسكنها سواي أنا، وهذه الدار هي داري، تلك التي تراها من حولك هي داري، ولأنّ هذه الدار، التي تكون بدورها داري، والتي بدورها هنا الآن أمامك، هذه الدار... كيف! لا يمكن أن يكون كلّ... لأنّ هذه الدار... لقد بدأت الجحيم فعلًا.

إعلان بخصوص التنظيم والبناء

قانون التنظيم والبناء لعام 1965

قضاء التنظيم المحلّي، حيفا

إعلان بخصوص إيداع خريطة تشكّل تغييرًا للخريطة الهيكلية المحلّية

رقم 304-0837419 وداي النسناس، حيفا

يُعلن بهذا بموجب البند 89 أ من قانون تنظيم البناء لعام 1965، أنّه في مكاتب اللجنة المحلية للتنظيم والبناء في حيفا، وفي مكاتب اللجنة اللوائية في حيفا، أودعت خريطة تشكّل تغيير خريطة هيكلية محلّية

هذه الخريطة تشكّل تغييرًا للخرائط: ح ف\ م ق\ و ن\ 1300\ ح ف\1400\ و ن\ 1400\ ب و\ 1500\ و ن

هذه الخريطة تخضع للخرائط: ح ف \ 229\ي\6 تما 1

هذه الخارطة تبدّل الخرائط التالية: ح ف 1957

البلدة: حيفا

مكان الخريطة: وداي النسناس 15ح و

هدف المشروع: إنشاء مبنى فندق وسكن في شارع وادي النسناس

أهمّ تعليمات المشروع: هدم المنزل كاملًا، هدم الحديقة، وهدم اللافتة

التعويض: لا تعويض

اسم المالك السابق: ناديا الفاعور

اسم المالك الجديد: دولة إسرائيل

الشرط الأساسي: يُهدم المنزل بعد أن يتم تسليم جميع أوراق الطابو والوثائق المطلوبة وبعد توقيع المالك السابق جميع الوثائق

دولة إسرائيل

CANTO IV: Gloria, don’t you think you’re fallin’?

المصابيح البهيّةُ مضيئةٌ من بعيد، وأنا رجل يرتدي ملابسه في العتمة، إلهي! كيف علقت في بنطالي الأصفر، ولم أخرج منه طوال حياتي؟ بنطالٌ لديه القدرة على أن يصبغ كلّ شيء من حوله. أرتديه وأجول به في شوارع حيفا كلّها، يسطع لونه في وضح النهار ويضيء في قلب الليل. بنطالٌ لا أمَلُّ من ارتدائه، يبقى فوقي، يحكّ أردافي، يصبغ جسدي، يجعلني حبيسًا داخله، لا ينفكّ عنيّ، أغسله كلّ يوم ثمّ أرتديه مجدّدًا، ولا أملك سواه. إلهي أنا ابنك، خلقتني على صورتك، وصوّرتني مثلك، لكنّك جعلتني أرتدي بنطالًا واحدًا طوال عمري، ما أقساك! أنتَ خالق الأشياء كلّها، لكنّك جعلت اللون الأصفر متربّصًا في هيئتي. أنت لا تحبّ هيئتي، أنت لا تحبّني، لماذا خلقتني إذن؟ إنّك لا تثق بي، تراقبني ليلًا ونهارًا، ترى كلّ تحرّكاتي، تسمع أصواتي كلّها، إنّك لا تثق بابنك، وتجعل الناس يقذفون دعابتهم عليّ، وينعتونني بالأصفر الأحمق. أعلم هذا؛ سوف أموت جوعًا وقهرًا ما دمتَ تمطرُ عليّ سخطك المستمرّ، سوف أموت وأنا خائبٌ منك لأنّك جعلتني، أصفر هكذا. ولأنّك جعلتني أخون زوجتي ناديا الفاعور، وجعلت شفتيّ مفتوحتين على طولهما، وتجاعيد أخرى خطوطها عريضة تكسو جبيني، وفي سمات وجهي ينتشر شيءٌ من اللامبالاة. الإرهاق والضجر لا ينفرطان عن كاهلي، لا بدّ من أنّك ترى سذاجتي، تلك التي حظيتُ بها بفضلك، إلهي، انظر الكون الذي خلقته، إنّ فيه الكثير من الترف والاستهبال، لقد خلقتني مغفّلًا، ببشرةٍ سمراء، وأضع قدميّ داخل فم زوجتي كلّما حَلَّ عليّ الضجر. لقد طرحتني إلى أعماق الجهل، وجعلت صوتي مذبوحًا. إنّك تذبح صوتي، أنت تريدني أن أصرخ لك، أن

أستنجد بك، أن أكون من رعيّتك، أن أطلب منك الطعام والشراب. لكنّك وضعتَ خليفةً بأفكارٍ لعينة، على هذه الأرض الفاسدة. إنّ أرضك فاسدة وكلّ من يطأها يأمل الفرار منها. ألم تجعل أورشليم كومةً من الأنقاض في الحقل؟ ألم تُلقِ حجارتها في الوادي؟ ألم تسحق جميع منحوتاتها؟ ألم تحرقها بالنار؟ أولًا بأن تطردنا من فلسطين، ثمّ تقذف علينا المنّ والسلوى. المصابيح البهيّة مضيئة من بعيد... إلهي أنا ابنك، لماذا تجعلني أعاني في هذه الأرض؟ إلهي، لماذا أموت إلى الأبد؟ لماذا جعلتني زوجًا لناديا الفاعور، لا غيرها؟ وأنا لا أذكر سواها، هي وحدها، في المطبخ، تطبخ فتات الحمّص، بينما يشتعل الموقد، تقف أمامي مثل النار بينما أرتدي بنطالي الأصفر، ونسمع صوت أبواق السيّارات صاخبة تشلّ حركة المارّة، بينما تتزيّن لتصبح ملوّنة مثل الفجر، تصيح في الليل بينما أضع قدميّ داخل فمها. لا أذكر سواها، وأذكر صوتها، إنّها عالقة في الحنجرة. لا تشبه أحدًا سوى الفجر، أجعلها تلحس إبطي، بينما تشهق شهقة حادّة، وتطلق من فمها البصاق. لا تشبه أحدًا سوى الفجر والنار، لكن كيف، كيف لها أن تشبه النار. إنّها لا تكفّ عن الاشتعال، وتصرُّ على أنّني أخونها، لكنّي لا أخونها، أنا لا أخونها، أنا أحبّها، وأنت يا إلهي من جعلني أخونها، فيما كنت أحبّ أن أكون لها وحدها. ناديا هي من كانت تخونني، إنّها تذهب نحو بيت الغانيات عند فاطمة الغول، وتضع ذلك الشيء الثخين في فمها، مع أنّ فمها رقيق. إنّها مثل السكّر، رائحتها مثل السكّر. أضعها بين راحتيّ، وأضع قدميّ داخلها، صهباء، خبيثة، صغيرة ومتأجّجة، وتحبّ أن تكذب. إنّها كاذبة، لا أذكرها سوى كاذبة، أراها وهي تغطّ في النوم العميق، بينما أرى مصابيح الليل في الخارج تتزحزح يمينًا ويسارًا. أضع يدي فوقها، أشعر بها ترتجف، وأرى الستائر المعلّقة تزحف نحو الأرض، والشراشف تنزلق من جسدها، والجدران

تنهار فوقنا، وهي تغطّ في نومها، ومنها يسطع ضياء الفجر. حقًا إنّها لا تشبه سوى الفجر، لكن ماذا يعني لها سطوع الفجر في حيفا، وهي ترمي نظراتها نحو السماء، وتلعب بفرجها، وتذكر بعلها الأول. إنّها كاذبة، أخذتها كأنّها بغيٌّ من يثرب، قادمة من أحشاء الفجر، تحاول فرط ثيابها عن جسدها وتشعر بالظمأ. مسحوبة من شعرها، مقهورة القامة، كثيفة الشعر، كثيرة الكلام، كثيرة الكذب، وتخبّئ الأكاذيب في صدرها، تحشوه بين أردافها، لكنّي لا أراها إلّا مثل ألبرتين، لا تسمع سوى مقطوعات لولي، لا تأكل سوى في الشانزيليزيه. لا أذكرها سوى مثل الشيطان، إنّها مثل الشيطان، مثل النار. أذكر أنّنا صعدنا الجِياد بحثًا عن ناديا التي جاءت إلينا كأنّها بغيٌّ من يثرب، لكنّها امرأة لعوب هربت منّا. ونحن لا نزال نحدّق فيها، فيما راحت تبتعد خلف شمس الأصيل، تركض وتصهل، تفعَسُ الأرض بقدميها، مقهورة الروح، شعرها يشبه خيوط الشمس. تمشي في ذاكرتي كما يمشي الطفل أولى خطواته، اسمها ناديا، فتاة مثل النار. لا أنسى صورتها الأولى في ذاكرتي، وأفكّر قليلًا في أيّامي معها، أيّام قد عشتها ومضت، لكنّها بقيت تطنّ بأذني، تلحّ عليّ إلحاحًا لا يُطاق. أتت من يثرب لتحتلّ زقاق حيفا، وتطبخ الحمّص وتضعني في عينيها حتى مطلع الفجر. كانت تجرّني كالكلب، مربوطًا بسلسلة أكلها الصدأ لأتبعها أينما ذهبت وأطيعها، أعمى دون حيلة، مربوطًا لكي لا أنزل إلى قارعة الطريق وتأتي سيّارة وتدهسني. حاولت التمرّد، لكنّي ما عدتُ أتمرّد عليها، إنّها قاسية، ولذلك أنتقم منها. أضع قدميّ داخل فمها، وأذكرها تصرّ عليّ أن أبقى في حيفا جانبها وألحق بالخائن. آه لو كنت مالكًا أقمشة السماوات المطرّزة، لفرشتُ الأقمشة تحت قدميكِ يا ناديا، غير أنّي فقير، لا أملك سوى أحلامي، وقد فرشت لكِ أحلامي تحت قدميكِ، فخفّفي الوطء لأنّك تمشين فوق أحلامي. وأنت محنّكة تعلمين أنّ

حُلمي هو إيجاد الخائن كي أثبت براءته، لكنّك قاسية. وأمشي مثل كلبٍ يلهث خلفك، وأنت تعلّقينني من عنقي، وأشعر بأطراف الطوق المدبّبة تنخرُ في عضلاتي كلّها، وأذكرُ أنّ ذلك كان بعد اتّفاقية أوسلو. لقد فرَّ المناضل بعد الموافقة عليها نحو بلغراد، نَسَّ مثل النسناس، يلحس أطراف الأولاد ويَهوى النساء أحيانًا. كنتُ قد غادرت حيفا، وأعلنت رفضي أن أكون من فصيلة الكلاب مزيدًا وذهبت نحو إسطنبول أولًا. مررت من كاركوي حتى وصلت إلى بيشكتاش، وقابلت العُمدة هناك. جلس بجانبي مرتديًا قلنسوة غريبة المظهر، وبقي مُلحًّا، «أنا عُمدة برجوازي، لا أستطيع أن أعيش حياة الفقر» أحمق من يُريد تلك الحياة! قدّمَ لي بيرةً لذيذةً وسعرها زهيد. شربتها وتأمّلتُه، وبقي يتكلّمُ عن مجدٍ غبيٍّ باطلٍ لا وجود له، وهو يقول: «لقد كان لدينا سلاطين حكموا العالم لقرون، من أرطغرل حتى عبد الحميد. لقد دُسْنا العالم. غبيّ، غبيّ، لقد داسكم العالم! لقد داسَنا العالم... لقد قالها جيّدًا: أهلًا يا رفيق، حبيبي يا رفيق، سوف نخرج من هذه الرحلة معًا، كي نبحث عن الخائن في بلغراد، والآن يملك ذلك الخائن اسمًا مُستعارًا، فرَّ وترك البلد على حاله، يروي قصصًا لا معنى لها. يستخدم القصص ذريعة. قال لي العمدة إنّ الطائرة ستُقلع اليوم مساءً نحو بلغراد، وإنّ رفيقنا صاحب الاسم المستَعار الهارب من فلسطين قد استولى على بلغراد كلّها. يجبُ أن نُحضر الحقائب ونبحث عن صاحب الاسم المستعار. «أنت مجنونٌ»، يقول العمدة، تخرجُ في رحلة طويلة لا تعرف مصيرها، وقد تموت وتصرُّ على الإقلاع. ثمّ، وماذا سيغيّر صاحب الاسم المستعار في حياتك؟ سيقلب حياتك رأسًا على عقب، لكنّي أعلم أنّه سيغيّر حياتي، وسيجعلني أحقّق حلمي، إنّي أراه بوضوح، لقد قيل لي إنّه خائنٌ وباع فلسطين كلّها... لكن لا، سأُثبتُ براءته أمام العالم كله، إنّه ليس خائنًا. أوسلو لم تكن سوى نزوة. أنا

أعرفه جيّدًا. إنّها رحلةٌ خطيرةٌ، وإن كنتَ لا تُريدُ المجيءَ فسأذهبُ وحدي، قلتُ. لقد بدأ يتلعثم وقال إنّه سيأتي، بشرط أن أخلع بنطالي الأصفر أولًا. إنّه مُصرٌّ على أنّني مجرّد صحافيٍّ عابرٍ لن يذكره أحد، أدوّن الأخبار اليومية دون أيّ أهمّية، ومقالاتي تكادُ لا تُقرأ. لكنّي أؤمنُ بأنّني سأجده وسيُغيّرُ حياتي، وسأبدأ حياةً جديدة من دون أوساخ، سأفضحُ نفسي أو سأفضحُه، لعلّه هو مَنْ سيَفضحني. يضعُ مقطوعةً من غناء بولانت أرسوي، ويقدّم لي العَرق، ويقول إنّ لنا مستقبلًا واحدًا، فأقول إنّه لا وجود للمستقبل. ستُقلع الطائرة بعد ساعات. هو يدركُ ذلك، لكنّه يبقى جالسًا يستمع إلى بولانت أرسوي وينسى العالم بينما أحاول أن أخلع بنطالي الأصفر، لكن محال. لقد صبغ الأرض قبل أن أقذفه. صعدتُ والعمدة إلى الطائرة، وجلس إلى جانبي، معه جهاز الووكمان ويسمع أغنية غلوريا لا غلوريا لفيفالدي، ويقول لي بالتركية «طيّارة» لا يقول «أوتشاك» بينما لا أذكر سواها، أذكرها أولًا. وبلمح البصر، نصلُ إلى بلغراد والعُمدة لا يردّد إلّا غلوريا ويقول؛ «Gloria, don’t you think you’re fallin'?» المصابيح البهيّة المضيّئة، تقترب بينما أذكرها، تكشط الأرض وبين عظام الساق. أراها تخلع حذاءها، وترفع تنّورتها لعرض الساقين، وتحاول أن تضع سلسلة عفنة حول عنقي، لكنّي أرفض. بعدها أدرك أنّي تركت العمدة وحده مع غلوريا، والعمدة شخص هامشي يجولُ السند والهند بقدمين متعفّنتين بينما أذهب نحو الخائن. وأعلم أنّ الخائن لا يذكر السلع المَبيعة أيّام الانتداب البريطاني في فلسطين. لا يذكر شكل العساكر، ولا بزّاتهم العسكرية، لقد نسي تاريخه وماضيه، وأصبح بدوره سلعةً رخيصةً يتداولها التجّار. ليس خلاسيًّا، ولا جنديًّا، إنّه الخائن. ذلك الذي هرب من فلسطين، ويطلقون عليه اسم «الجاسوس». ومثل كلِّ تلك الأشياء التي ينساها، تذهب وتعود، وبعضها يبقى عالقًا

في ذاكرته، ينسى الخائن حيفا. يفرّ منها لأنّه لم يعد يحتملُ وجوده فيها، ذلك لأنّه بدأ يكره جسده، وبدأ يدور في الشوارع مثل مجنونٍ أصابه الصرع، ولا يجدُ حلًّا لمشكلةِ رُعاف أنفه، ويدخّن الكثير من السجائر، ورئتاه اصطبغتا باللون الأسود، وقلبه أسود. لقد باع الأرض... باع بيته. استقال من المهمّة، لا بل لنقلْ لقد هرب. إنّه هاربٌ، جبانٌ ووضيع... خائفٌ، يرتجفُ، يخافُ أن يحكي حكاياتِه. إنّه الشيء الوحيد الباقي، ما عاد إلّا قضيبًا، أنفه الكبير تحوّل إلى قضيب. يقول إنّه فضّل الهرب على الموت، يضعُ دميةً بلهاء بين قدميه خوفًا من أن يبقى وحيدًا، ويحتسي البيرة، ويصبح سكّيرًا. لا يفرّق بين الطريق إلى حانة المثليّين والمثليّات وحانة المغايرين. لقد تفسّخ جسده، توسّع وتمدّد. يستلقي كلّ ليلةٍ في فندق وضيع وزهيد... يبقى كلّ ليلةٍ معها، يقبض عليها من رأسها وهي تملكُ رائحةً كريهةً، أشمّها من هنا. تطلب منه أن يدخل بها، وهو ثملٌ. لا يفرّق إن كانت تُشبه آدا أم صوفيا لورين، لعلّه يفضّلها ترانس... لا أدري، أم هو يفضّل الأولاد. يقولون إنّه يحبّ الأولاد، لكنّ المساء قد حلَّ، ويجب أن يفرَّ من حيفا اليوم. لقد خرج من حيفا وأقفل الباب جيّدًا، ووضع كلّ الصور والذكريات في عقله وجيبه. جال في المدينة لمرّةٍ أخيرة، مرَّ من وادي السيّاح، وبعدها ذهب نحو وادي النسناس. رأى محالّ الفلافل والحمّص والتوابل. قطع وادي الصليب، رأى خيوط الفجر الأولى، وبعدها فرَّ نحو الطائرة مثل خسيس. رأى فلسطين صغيرةً من الأعلى، فلسطين تختفي وتتلاشى بين الغيوم. راح يلوّحُ بيده من بعيد، ذهب ولم يعدْ مجدّدًا. إنّه نحيل الجسد يشبه قصائد شيزارِه بافيزي، تاركًا بيته في حيفا، وقاطعًا تذكرة سفر نحو بلاد البلقان، أو يوغوسلافيا قبل انهيارها، وفي ذهنه فتاةٌ ترفض الاضمحلال. فتاة مثل ناديا زوجتي، تذكّره بماضيه. صحيح، أتعلم ماذا يقول الشاعر؟ يقول: «ليس لديّ

في القلب سوى ذكراك، ذكراك، شاحبة وشاسعة، وضائعة في الأضواء الباردة مثل أوسلو». لقد وجدتُ الخائن جاثمًا فوق العُشب أمام نهر الدانوب، يحدّق في مجرى النهر، والشمس من فوقه، لهيبها يحرق بدنه. دنوتُ منه، فأشعل سيجارته وهمس بخفّة: «أتعرف رائحة الفجر؟». اقتربَ منّي وهو يلعب بشفتيه، ويحدّق في وجهي. أراه يحدّق جيّدًا في أظافري المقلّمة، ويمدّ يده نحوي ليناولني شطيرةً من السلمون المدخّن. أكره رائحته، لكنّي أواصل شمّه، وأحدّق في وجهه، بدأ ينطق كلماته: «أنت تعلم بأنّ أوسلو مستحيلة، وبأنّها خطيئتي الأولى، كما أخطأ آدم في السابق. لكنّي وافقت عليها، ليس بإرادتي، إنّ أوسلو حلمٌ، لكنّه حُلمٌ مستحيل، أنا مسلوب الإرادة، وفعلت كلّ هذا من أجل هذه الأرض التي تُقاس بالفراسخ، ومن أجل ألّا تُطردوا من فلسطين، من أجل حق العودة، من أجل عودة اللاجئين الذين طردهم الله. أعلم أنّها خطيئتي الكبرى، أعلم هذا، نعم إنّي أملكُ الغلمان. لكنّنا مع الحرّيات المطلقة، وإنّي أملكُ حرّية مطلقة في الفراش، لكنّك تصرّ على أن تقول لي أوسلو، أتعلم؟ هيّا مزّق أوسلو، هيّا مزّقها، إنّ أوسلو ليست سوى حُجّة شرعية. تمامًا مثل الزواج الديني، إنّه نكاحٌ شرعيٌ. أنا المناضل الوحيد هنا، أعظم من غيفارا ذاته، لكنّك تُنكر فضلي، وتركّز على قضيّة الغلمان. لقد قدّمت لكم كلّ ما يستطيع بشر أن يقدّمه، كنتُ مثل فولتير حيًّا. أتعلم لماذا أوسلو مستحيلة، لأنّهم ليسوا بحاجة إلى أوسلو أساسًا. أوسلو لم تكن سوى لُعبة، وأنتم تقذفون اتهاماتكم فوقي... حتى أسأل نفسي؛ من أنا؟ أنا لستُ سوى أنت. أنا لست سوى الآخر، أنا لست سوى أنتم، لكن أتعلم يا رفيق؟ لقد اقتادوني مثل الحمار، وسحبوا السلاح نحوي، ها ها ها، إنّك لا تدري أنّ امرأةً ما تحبّني كثيرًا. لقد بحثت عنها كثيرًا وهي تُصدر صوت الآهات من فرجها، أنا أنسى اسمها، المهمّ اسمعني جيّدًا الآن، دعك

منها، لقد تركتُ حيفا. والآن أنا هنا إلى جانبك ومعك، وقد أكون لك! وقد أنكحك وتنكحني... لماذا تنظرُ إليَّ مُستاءً، أنا أمازحك، يا رجل! أنا أفضّل النساء، إنّك وسيمٌ، لا أخفي هذا، وتملك جسدًا بهيًّا يقفز بخفّةٍ ويجول الحارات مثل ظبيةٍ بيضاء، وأناملُك طريّةٌ ولحمك ليّنٌ مثل بنات صربيا، وعيناك تبزُغان من الداخل، تَصْفرّان وتَحمرّان وتَخضرّان كلّما رمقت... آه إنّك شديد النحولة، وتشبه عشيقتي كثيرًا! لقد انهارت يوغوسلافيا ولقد انهرتُ معها أنا، لقد فررتُ من فلسطين كي أجدها، لكنّ هذا الضوء كثيرٌ علينا! يجعل الليل يبكي، يتوه، إنّنا نَتوه. اسمها محفورٌ في قلبي، هذا الضوء يخترقُنا، ويَفعَسُنا ويجعلنا عبيدًا، وأنت لا تعلمُ خطر هذا الضوء الذي يأتي بخفّةٍ نَحوَك، ويَعِدُك بأحلامٍ شهيّةٍ، يعدُك بالتِهامِها. لكنّه يلتهمُك. هربت من بلغراد، وقد قالوا إنّها رحلت نحو الدولِ الإسكندنافية، وبحر البلطيق. من المستحيل أن تكون في بحر قزوين الآن، كيف أبحثُ عنها هناك؟ إنّها بعيدة المنال، بعيدةٌ عن الأيدي، تُشبه الزجاج، تنكسر وتقفزُ على قضيبي، معلنةً متعةَ النكاح. إنّها لا تُشبهُ أحدًا، ولا حتّى ألبرتين! أنا أذكرها الآن، لقد أتت إلى حيفا، وأخذتُها وقتها جولةً سريعةً في السيّارة دون الحرّاس، وشلحت ثيابها وقذفتها من النافذةِ نحو شاطئ الكرمل. قالت إنّها ليست يهوديةً. أنا ألج بها لا يهمّ إن كانت يهوديةً أو لا. خسرتُ فلسطين وخسرتُها، وقد تسألني الآن لماذا تركتَ فلسطين؟ إنّني لستُ بخائنٍ، أنا فعلًا لم أعدْ أحتمل. لقد أخذوها منّي، وفرّتْ عابرةً بلاد المجر، لقد ظلموها، لقد ظلموني. أنا رمز البلاد، رمزُ الزيتون وفلسطين أجول في المنفى باحثًا عنها، لقد أحببتها بصدق، وتقول هي: «هيّا تعال بسرعةٍ إليّ، تعال إلى حضني يا حبيبي»، فيما تنظر خلف الجدران، ماذا أخذتْ منّا كردستان؟ ماذا أخذنا من كردستان؟ «سآخذك رحلةً طويلة، طويلةً جدًّا. ما رأيك يا رفيق؟». المصابيح

البهيّة مضيئة من بعيد، لكنّها تقترب أكثر فأكثر، حيث أشعر بها. لقد بقيت الكلمة عالقةً في ذهني يا رفيق، يا رفيق، آه يا رفيق! يذكّرني بالشاعر بافيزي، لكن ماذا تفعل كردستان بيننا؟ والآن ماذا أفعل وحيدًا في شوارع بلغراد الممطرة من دونه، ومن دون ذكرى خليلته، لقد قال لي أيضًا إنّه فرّ من فلسطين من أجلها، وإنّ قدمَيه لن تطآ فلسطين مجدّدًا، وإنّ من يخسر ذاته مرّة يخسرها كلّ مرّة، ولا شيء يدعو للتفاؤل أو الفرح في حياته. فكلّ شيء أصبح سواءً في نظره. كان يواصل التحديق في قدميّ، بينما كنتُ أحاول أن أطرح عليه بعض الأسئلة. وأذكر أن العمدة في النُزل وحده يسمع غلوريا، وأنّ بنطالي الأصفر من المحتمل أنّه صبغ الأرض، وأنّ في بالي ليس سوى ناديا، إنّي أراها على طرقات بلغراد الشاسعة، وأرى قدميّ داخل فمها. أراها تلحس جسدي كلّه، وأرى الخائن وخليلته يدًا بيدٍ، وهي تقول له: «إنّنا بلا بيتٍ، ولا وطنٍ»، وتلعب هي بالطين. إنّها ليست طفلة، كيف لها أن تلعب بالطين؟ إنّها تجلس فقط فوقه وتصرخ: كردستان! وهو يصرخ: حيفا! هي تصرخ: إيران! ويقول لم يبقَ لنا سوى لغتنا، لغتنا هي المجد، تقول نحن الألمان فقط، خراء، خراء، كلّنا خراء. يقول الخائن: «لقد انتهى الطريق سريعًا، إنّه طريقٌ مختلفٌ تمامًا... لقد سلكنا طريقًا آخر، لا أدري، لقد ضاعت الأرض. لا، لقد سرقوها! حلّت عليهم مجازر كثيرة، قال إنّهم قتلوا أخويه الأكبر والأصغر، وبقي وحيدًا، مشرّدًا، زاحفًا، مهمّشًا. يزحف على طرقاتٍ لا يعرفها، يبقى جاثمًا فوق لِجام جواده، وبيده نصلُ سكّين مدبّبٌ محدّب قليلًا، وتجده أحيانًا راكعًا وخاضعًا لتلك الجمهورية، ولذاك الرئيس الذي يتمنّى أن يقتله ويضع سكّينًا في قلبه، يمزّق أحشاءه كي يأكل كبده. في الحقيقة، انظروا، إنّ جواده أبيض، أمّا جوادي فلا يُشبه جواده. استيقظوا، استيقظوا! يصرخ، نهضت القبيلة من أحشاء الفجر، لقد شممنا رائحة الفجر، أيّها

الصبيّ الصغير، لا ينبغي أن تكون هنا بعد الآن، سيأتي اليهود، وسوف يضعونك في السجن مثل الأخرق. لقد وضعوا الفلسطينيين خلف قضبانٍ أكلتها الفئرانُ بلا سبب، أو لا... إنّهم يزعمون أنّ كلّ أهل فلسطين من الجماعات الإرهابية. لكنّهم لا يزالون يأكلون المقلوبة والحمّص والفلافل. عندما كنتُ في لشبونة، رأيتُ لافتةً كبيرة: «أفضل طعامٍ إسرائيليٍّ في المدينة، حمّص، فلافل، متبّل»!».

أقسمُ إنّه مصاب بالخرف، ذلك الشيء الذي يُجرّد الذاكرة من موطنها، ويقذفها عارية نحو الشارع. لقد أصابه الخرف، لا يذكر أنّه وافق على اتّفاقية أوسلو. ولا يذكر أنّه كان مقذوفًا خارج تقاسيم النهار، وأنّ ما يدور في خلده، ليس إلّا ضربًا من الخرف. ها أنا أعود إلى النُزل وأرى ضوء النيون يزنّ فوق رأسه، والعُمدة يحدّق في السقف، وأرى الأرض صفراء اللون. لقد وسّخَ بنطالي الغرفة كلها، والأشياء كلها تصرُّ على أن تُنهي ذاتها، فيما الخائن يقرّر أن يموت وحيدًا في بلغراد، يموت من الخزي، ليؤكّد أنّ أوسلو لم تكن سوى نزوة. ومجدّدًا أعود إلى حيفا، لأنّي لا أعرف سواها من المدن، لا أعرف سوى ناديا وقدماي في فمها، إنّها صهباءُ، شهيّة، لعوب، تشتعل... اسمها ناديا، حبيبتي،... والآن، قد توقف الزمن وقد توقفت ساعة الحائط التي أراها وأراقبها، أسمع أغنية تقول **«لقد خبّأتُ دموعي لك، لعلك تأتي يومًا»**. وناديا تشبه ليلة صيفٍ جافّةً، تقفُ في الحلق، تَعلَقُ في الحلق، لا أتنفّس، وأُحاولُ أن أطلقُ عُواءً. آه إنّها لن تأتي، لقد خدعتني، لقد خدعتنا ناديا، خلعت ثيابها، وأصبحت طريحةَ الفِراش. شعرْتُ بالتعبِ، وواصلْتُ النوم. وحيدٌ ويُخيَّل لي أنّني أقفُ في ميلانو، ولماذا ميلانو؟ أنا لا أُطيقها، أُفضّلُ نابولي عليها، ناديا لا تحبّ سوى نابولي أيضًا، لكنَّ عينيَّ لا تريان سوى حيفا ولا شيء سواها. لا لن أصل إلى الكنيسة، لأنّ الكنيسة في وقتها المحدّد تجعلني أحبّ

الشيطان. لكن ما شعورك حين تنهض وترى أنّ عالمًا كبيرًا قد انهار أمامك، وأنّ كلّ شيء أحببته بإخلاص قد ولّى، وأنّ حياتك ليست سوى مجرّد خراء، وأنّك شيطان مثل النار، تقتل كلّ شيء من حولك، وتملأ أرضيات العالمين كلّها باللون الأصفر، اسمعي يا ناديا ما يقوله الشاعر: «أنا لا أقول ذلك لأنّي أسمع وقع خطوات أو أصواتًا، ولا لأنّي أشعر بأنّ هناك من يراقبني في الممرّات فأنهض للطواف في هذا البيت الذي لا ينفكّ عن كاهلي، بل لأنّي أحسست يومًا بعد يوم، ثمّ لاحظت، أنّ هناك من يطوف في الباحات والغرف الفارغة والممرّات كما أفعل أنا. لم تكن ناديا، بل أخرى، تجول في البيت بخفّة، أكاد لا أسمع صوت ضربات قدميها، إنّها مذبوحة، والدماء تقطر منها، معلّقة من حنجرتها. كنت أنتِ، ناديا، لقد خمّنت ذلك منذ البداية. دنوت منك، ورأيت جسدك الكبير، لكنّي سرعان ما أدركت أنّ كلّ هذا لم يكن سوى ضربٍ من الحُلم، وأنّكِ فتاة أخرى. فتاة ذات جسم طفولي بذيء، متّسخ، يشاطرني المكان نفسه. لماذا؟ في هذه الساعة يجب أن تكوني نائمة في مهدك، لماذا تطوفين في الممرّات ليلًا، فقط لتغوي جدّي وتجعليه يخون ناديا؟ بينما بنطال جدّي الأصفر يصبغ الأرض، لماذا كنتِ تلاحقينني، أم كنتِ تطاردينني مثل البعبع؟ إنّك جميلة وتمشين بخفّة، لكنّك تحتلّين فضاء الليل، وحضورك راح يغزو أفكاري. إنّك لعوب، لا، لستِ شاعرةً ولن تكوني شاعرة. إنّك عذراء، ولا يمكن لأيٍّ من العذارى أن تكون من الشعراء، لكنّك ترغمينني على الشعور بك حتى وأنت مذبوحةٌ من العنق، مشلولة الأرجل، إنّني أطوف في البيت كلّ ليلة حتى وقت متأخّر. أحيانًا طوال الليل بينما النجوم تفرّ هاربة، والفجر قادم، أنا لا أنام. أبقى أجول الديار، أتفقّد غرف النوم، الصالة، ومن بعدها المطبخ، أفتح درج الشوك والملاعق، أتأكّد من وجود الصحون في مكانها، كؤوس النبيذ، المشابك، الطحين، نعم

الطحين، من دون طحين لا نملك الخبز، وبعضٌ من الحمّص، وأنتِ صبيّة بالكاد في العشرين مذبوحة من العنق. أذكرك قبل أن تموتي، كلّ ليلة تجرجرينني من طرفٍ إلى آخر من أطراف البيت، وأشعرُ بكِ مثل النار في جسدي، وننظر معًا إلى انعكاس المصابيح في الشوارع. ولأنّ المصابيح هي مصابيح فلا بدّ لها من أن تحترق وحضرتك تحدّقين في قرميد الأسطح. وتحاولين جاهدة أن تكتبي شعرًا، لكنّك تخفقين. نسمع معًا، أبواق السيّارات وشيئًا آخر من البيتلز، أو دي مارتن، بعدها أتبعك في كلّ مكان لئلّا تضيعي، لئلّا تظلّي محبوسةً إلى الأبد، لئلّا تختفي، وأشعر بك فتاةً مثل اللهيب، ولكن هيهات! إنّك تجعلين جدّي يغدر بوحيدته ناديا، بينما الصدأ يبدأ بالتهام منزلنا. يبدأ من غرفة نومك أنت تحديدًا، من أرجل السرير وصولًا إلى عانتك الخشنة، وبعدها يحتلّ جسدك كلّه، وتصبحين مثل الحجر، وبعدها ميتة بالتأكيد، وداعًا الآن، إنّ قصّتي تسارع إلى نهايتها، شأنها شأن كلّ شيء. فكلّ شيء يزحف ساعيًا إلى نهايته، والعالم يوشك أن يبلغ أجله وتلك هي حاله على الأقلّ بالقياس إلينا معشر العرب الذين يرجع تاريخهم إلى ألف عام، إذ يساق إلى العبث ويضلّ سبيله، أو يخطئ هدفه من حيث كونه مشؤومًا، ويثبت أنّه طريق ضلال أو متاهة من خلال هذا الحدث. إنّك تموتين في اللا شيء، في اليأس، في إفلاسٍ ليس له مثيل، وفي رحلة إلى الجحيم تتراقص حواليها ألسنة اللهيب المرعدة، لكنّ الأهمّ أنّك تموتين في قلبي. وإذا صحّ ما يوضّحه القول المأثور، بأنّ كلّ طريق يفضي إلى هدف صحيح فهو صحيح أيضًا، في كلّ بُعدٍ من أبعاده. فإنّ من الواجب أن نقرّ بأنّ الطريق الذي أفضى إلى هذا الفساد في هذه الأرض – وأنا أستعمل هذه الكلمة بأشدّ معانيها صرامةً وألصقها بالدين أو الله أو حتّى بك، لكونك امرأةً لعوبًا – إذ كان الفساد في كلّ شيء، يجول أرجاء المنزل وفي كلّ

نقطة من نقاطه وفي كلّ منعطف من منعطفاته، مهما يكن من مرارة إقرار هذا المنطق بالقياس إلى الحبّ. على أنّ الاعتراف بالفساد ليس مرادفًا لإنكار الحبّ إطلاقًا، ذلك لأنّي شعرت بكِ. أنتِ جدّتي الوحيدة وأحببتك بشدّة – وأنا الفلسطيني البسيط والمثقف – تخصلت بكثيرٍ من الخصال العربية، بل كانت حياتي غير ذات الشأن، والمؤهّلة مع ذلك للافتتان والتفاني، مكرّسةً للحبّ المروّع في كثير من الأحيان، والخائف أبدًا، ولكنّه وفيٌّ إلى الأبد».

CANTO V: Punk, you still a punk I think so

أعترف:

I KILLED HER

لقد ذبحتها من العنق. فتاة في العشرين، لا تنضبّ في منزلها، تأتي نحو دارنا كي تتعرّى، وتغوي جدّي. أراهما في فناء الدار بينما تغادر ناديا المنزل، أراهما يتعرّيان على سرير ناديا، وأنا أحدّق فيها. فتاة لعوب، تغلي من الداخل، لكنّي لا أحتمل رؤية جدّي مع امرأة أخرى بينما قدور حبّات الحمّص تغلي فوق اللهب، أشعر بالغيرة. أنا غيور، لا أحبّ سوى النساء! أقسم! تخلع حمّالة صدرها، وتجعله يلعق نهديها. إنّها كبيرة في السنّ، ليست في العشرين. كيف هذا؟ كيف أراها صغيرة السنّ، إنّها تشيب، إنّها تكبر، تتغيّر، تنتفخ، وصدرها ينتفخ ثمّ ينفجر ثمّ تتطاير. ما لبثت أن رأيتها، أتيت كالبرق وبحوزتي BOWIE KNIFE، كي أغرسها في قلبها. إنّها تموت بينما تقول آخر كلماتها. إنّها صاحبة وجه ناعم، وهي ميتة. وأفكّر...

I KILLED HER
SHE IS AN ASSHOLE
SHE HAS TO DIE

ناديا أيضًا مقتولة. أنا لا أذكرُها كما يذكرونها، بل أذكرُها على نحو مختلف؛ أسمع صوتها يجول في دهليز أذني، وأراها تتّكئُ على الوسائد الملوّنة، شهيّة، منبَطِحة، مُستَلْقِية، تُشعرُك بفُحولَتِك. إنّها مثلُ الزهرة، وأذكرها في يومٍ بكت فيهِ كثيرًا بعدما صفعها جدّي دون أن تشعرَ بكفّه على خدّها. وبينما تمتزجُ ألـوانُ الوسائد بالأحمرِ والأصفر، ولا أثرَ للستائر، تُقرِّرُ أن تخلعَ جميعَ ثيابِها وتستلقي عارية. تدفنُ رأسَها في الوسادة مثل رسمةٍ انطباعية كبيرةٍ، أو كأنّها تتفتَّتُ من الدّاخل. تُمزّقُ الوسائد، تُمزّقُ جسدَها، تتكوَّر على ذاتها. الشمسُ تضربُ عينَها، وأفكارها لعينة، ذات شخصية مزدوجة، وجدّي يأتي ويسحبُها من يدِها، يُقبِّلُها ثمّ يرمي بها أرضًا. إنّها متَّكِئةٌ على جسدِها، مُتَّكِئةٌ على عُرْيِ جسدِها. ماذا تحاولُ أن تفعلَ سوى البكاء؟ تَبكي في الصباحِ، لأنّها في الليلِ تصيرُ بائعةَ هوًى أو فنانةَ مسرح مثل آدا. وعندما تستيقظُ تكتشفُ أنّ كلَّ هـذا قد حـدث بالفعل، وتشعرُ بالنّدم، لذلك تجدُها مُستلقيةً بين الوسائد عاريةً شهيّة، وجسدُها يغلي. حرارتُه عالية، إنّه ينفجرُ، إنّك تَتَحسَّسُه، وتشعرُ به يتبخَّر. تنهضُ، وتُخبِّئُ وجهَها من المرآة، وتقرأُ كتابًا، تضعُ الكتابَ في حِجْرِها، تضعُه بينَ فخذَيْها وتقرأ، تُمرِّرُ يدَها على الصفحاتِ، تُقلِّبُ الصَّفحات، وتحبّ التنانير القصيرة. إنّها تسكنُ في غرفةٍ صغيرة، تسمع أصواتَ المدينة، لكنّها تقرأُ بنَهَمٍ، مُنغمِسَةً في القراءة. لا تشعرُ بأنّها في حاجةٍ إلى الثياب، تشعرُ بالراحة هكذا. وعلى رقبتِها تظهرُ شقوقٌ، قد تكون من المسرحِ، أو من عملِها كبائعةِ هوى. تقلّبُ الصفحاتِ وتنظرُ إلى السماء، إنّها تكتشفُ أنّها وحيدةٌ، وبعدَ أن تكتشف هذا تعود إلى الوسائد الملوَّنةِ وتتَّكِئُ على جسدها. عـاريـةٌ، مـجرَّدةٌ من ذاتها، والثيابُ تسقطُ من فوقِ السرير. الستائرُ بدورها تسقطُ. والعالم يضيع أحيانًا وينهار أحيانًا أخـرى، جسدها يتقلّص، وهي تحاول التمسَّكُ

بالوسائدِ كي تغفو، وبهذا يمرُّ الوقتُ ويخرجُ الصباح، لكنّها تَذكُرُ شوارعَ القدس كلّها، دون أن تنساها، لقد قالت لي إنّها درست في مدارسِ اللاتين، وإنّها أحبَّتْ لولي، لكنّها لم تُقدِّمْ له جسدَها، إنّها لا تزالُ عذراء، لكن كيف؟ ماذا تعني لها العذريّة؟ ذلك الشيء لطالما عنى لها الإصغاءَ لا ذلك الشيءَ المُحاطَ حول فرجِها، لكنّها تُفضّلُ أن تستعمل الكلمة الإنكليزية، وتقول vulva. لقد درست اللاتينية والإنكليزية والعبرية وتتقنُ كلّ تلك اللغاتِ بطلاقة، لكنّها باتت تنسى الآن. لا تنسى لولي، لكنّها تنسى اللغةَ التي كان يتحدّث بها لولي. وتقول إنّ لولي شيءٌ مثلُ الحلم، أحبّته بشدّةٍ، لكنّها اضطرّت إلى أنْ تتخلّى عنه. إنّها لا تتخلّى عن أشيائها إلّا طوعًا. نعم تُغادر طوعًا. آه ناديا، أيّتها الصهباء، تُغادرين وتتركينني وحيدًا هنا، ما أقسى ذلك الشعور! يسمّونه الاشتياق الكبير، شيءٌ مصدره الـvulva، يخرجُ منها ويستولي عليك. سمعت ناديا وهي تبول كثيرًا، وكنتُ أسمع صوت البول وهو يخرج من الـvulva. إنّها تحبّ التبوّل، ولم تكن تُغلقُ البابَ خلفها. لطالما أحبّت أن تبولَ في العَلن، وشمّ جميعُ مَنْ في البيت رائحةَ بولها. لقد قالت لي ابنتها عيّوش، إنّها تركتهم ثلاثَ سنوات في «كفركنّا» وحدهم. إنّك ترى أنّها كانت حقودة، كرهت جدّك كثيرًا، وترى أنّها أحبّتك وحدَك، لكنّها تخافُ أن تقول، وتشعر بأنّكم عائلةٌ لا تشبهُ أيّ عائلةٍ أخرى، وتشعر بأنّك تملكُ حكايةً لا يملكها أيّ أحد مصدرها من الـvulva. وأفكّر في نفسي بإلحاح؛ أنتَ لم تقرأْ جميس جويس، ولم تقرأْ دانتي، ولا ميدل مارتش، أو ثلاثيّة البلقان. أنت تعلم أنّ حبيبك خسيسٌ أيضًا، تركك وحيدًا هنا، تُحاكي الجدران. وحيدٌ هنا، وحيدٌ إلى الأبد، تُحاكي الأشجار. والأشجار بدورها تنهار، وحيدٌ في شوارعَ وحيدةٍ، والشوارع بدورها تتخلّى عن أسمائها، وتغيّر اتّجاهاتها وتنظرُ نحو الزّقاق، وتفكّرُ في الكلمات، وتعدُّ الكلمات.

وتقول إنّك لا تعرفُ سوى بعضِها، وتقول إنّك تمشي وعينُك لا ترى سواه. تُحبّه بشدّة، لكنّك تريدُ أن تخنقه، تحبّه، لكنّك تريدُ أن تلكُمَه، لقد تركك وحيدًا، مثلما تركتك ناديا وحيدًا، مثلما يتركك الجميعُ وحيدًا.آه الوحدة، ما أقساها! يتذكّر جدّي شكل الـvulva، الشعيرات، الإحليل الذي يخرجُ من جوفه بمتعةٍ عارمة. وتتذكّر ناديا أنّ للبظر متعةً لا تُقاوم، وأنّها تحبُّ أن يُداعبَ بظرها. يُذكَر أنّ لون الـvulva ورديٌّ أحيانًا، وبنيٌّ في أحيانٍ أخرى. ويحبُّ جدّي أن يقبّلها من هناك. يسحبُها نحو غزّة، نحو تلّ الهوى، يقبِّلها هناك. يجرِّدُها من ملابسِها، يطيحُها نحوَ الفراش، يسمعُها جيّدًا، ويُحدِّقُ في الـvulva، ويقول لها هيّا، إلى اليسار أو اليمين، كيف أحرّك أصابعي؟ كيف تريدين أن أكون فارسًا مثل دون كيشوت؟ أنتِ لا تعلمين كيف أكون في معارك الحرب، لقد قاتلتُ اليهود بالحجارة. تسخرُ منه قائلة: تُقاتل اليهود بالحجارة، ويقتلونك هم بدورهم بالحجارة، لكنّها ليست تلك الحجارة التي تعرفها حضرتك! وكيف كان جدّي يرى فلسطين، من شمالها حتّى جنوبها؟ فلسطين الصغيرة، لقد كان يقول، إنّ فلسطين عروسٌ. كان يراها عروسًا، وكان يرى الأشياء مثلما يراها تورغت، وكان يريدُ امرأةً مثل نرمين، أنتَ لا تريدُ امرأةً مناضلة مثل ناديا، قل لي الآن، جدّي! هل قرأتَ رواية فندق الوطن؟ لا أنتَ قرأتَ بروست فقط. حسنًا، قل لي كم مرّةً قرأتَ بروست؟ ولماذا بروست، ولماذا ليس جويس، لماذا بروست؟ ولماذا ليس بلزاك؟ ولماذا بروست، ولماذا ليس فلوبير؟ ويسألني الجنود عن بيت ناديا الفاعور. وإن كنت أذكر الأواني والملاعق والشوك، الشراشف، المخدّات، اللحاف، الكراسيّ، الطاولات، الستائر، الأطباق الملوّنة. وإن كنت أذكر ردفَي ناديا الشهيَّين، ولون فمها، ولون شفتيها، يدها، يديها، ساقها، طولها، قامتها، وكم كانت تزن، أربعين؟ خمسين، ستين، سبعين؟ لعلّ وزنها

بالباوند أو بالرطل، لا بالكيلوغرام. لو كانت ناديا على سطح القمر لكانت أخفّ بكثير، وازدادت حلاوتها أكثر. يسألني الجنود إن كنتُ تذوّقتُ ناديا؟ إن تذوّقتُ صدرها؟ يسألني الجنود عن فرجها... وكيف كانت تلعب وبماذا تلعب ومع مَن؟ أخبرهم بأنّ جدّي كان يقول إنّ طعمها لذيذٌ. هي لا تشبه أيًّا من الروسيات أو الرومانيات اللواتي جامعهنّ في رومانيا ومولدوفا. وحين يجنّ الليل، آه في تلك اللحظة بالتحديد، حين يغضب الليل، تصبح بائعة هوى نضرة بينما يقف جدّي هناك، في مكانٍ ما، يحدّق فيها، وفي عرض ساقيها، وفي نهدها، وحوضها. لقد جنّ الليل، وأصبحت فتاة أخرى، تلعب بنا، ففي النهار هي راهبة وفي الليل قحبة. لكن لماذا تفضّل أن تكون عاهرة، حين يُجنّ جنونها؟ هذا شيء يقبع في داخل كلّ واحد منّا. الشجاعة تكمن باستكشافه، أخبرتُ الجنود بأنّ جدّي طيّبُ القلب ويحبّنا كثيرًا. لكنّه حشّاشٌ وخائنٌ من الطراز الرفيع، خائن خمس نجوم. خائن مع شهادة اعتراف، لكنّه لا يخون الوطن، بل يخون ناديا. غبيٌّ لا يعلم أنّ الوطن هو ناديا، كيف لم يخن وطنه؟، تقول ناديا إنّه كان يضربها كلّ ليلة... قذر، ويتعاطى المخدّرات، يُريد المال، يُلحُّ عليها كلّ ليلة، لقد عذّبها كثيرًا، لكنّها تنسى خياناتهِ. وتبقى تحبّه حبًّا جمًّا يستعصي على النسيان. يستأنف. **«كيف قرأتَ غارسيا ماركيز وفرويد ولاكان وشتراوس وسط هؤلاء؟ أنت تنعتهم بالجهلاء»**، فأردّ عليهِ؛ أنت جنديٌّ يهوديٌّ وضيع، تعتقد أنّك وحدك تعلم غارسيا ماركيز ونسيتَ أنّ كلّ العالم يعرف غارسيا ماركيز، الكبير والصغير، نساءٌ ورجال، أطبّاء وباعة فلافل في أزقّة كولومبيا. قلتُ له: أتعرف ترغوت ونرمين؟ ليصرخ في وجهي... **«ترغوت؟ نرمين؟ من هذان؟»**. أجيبه: أنت تعرف فقط غارسيا ماركيز لكنّك لا تعرف ترغوت أو نرمين ولا تعرف زبارجت، ولا حتى الصبيّة فيليز، ولا حتى

أدريان، ولا حانات كافكا ونساء دونسو. هل قرأت الألعاب الخطرة؟ هل قرأت «توتونامايئلار»؟ هل قرأت عن شعوب الأنكا؟ هل تعلم كم يبلغ طول جبال الأنديز أو حتى طول قضيبك؟ عرضه؟ سنتيمتر؟ أم متر؟ أم تقيسه بالفراسخ، أنت تحسب بالفراسخ مثل ناديا. حسنًا أجبني الآن هل تعلم كم يبلغ عدد بحيرات الملح في مناطق الأنديز؟ هل تعلم كم يبلغ عدد سكّان غرينلاند؟ هل تعلم كم قصيدة كتب أورهان ولي؟ ماذا عن شوبان الصغير حين مات؟ والآن قل لي ماذا عن ناديا هل تعلم كيف قتلتها؟ وأخيرًا؛ هل تعلم أنّه لا وجود لأورشليم. **«توقف عن الثرثرة وقل لنا؛ ما أكلة ناديا المفضّلة؟»**، يقول لي. فأقول إنّها تحبّ حساء العدس كثيرًا، تشرب العدس بشراهة، تأكل البصل، الفجل. «تُلغمص» فمها، تجعل فمها ممتلئًا، تخبّئُ فمها، لا تدعنا نراها وهي تمضغ الأكل. لا تحبّ أن تجهر بأسنانها، لكنّها تحبّ أن تسرّح شعرها، تريد أن تبقى شقراء طوال العمر. إنّها لا تريد الموت، كانت تقول لنا إنّها تكره الموت. وعندما كانت ترى جدّي في منامها، كانت تستيقظ مذهولة، جاحظة، خائفة، ترتجف، تصيح وصياحها يملأ الحارات، عالقًا على الجدران... عالقةٌ في أذني، صوتها، شكل أنفها الثخين، شفتاها الغليظتان، أنفها المعقوف، لكنّي لا أرى سوى وجهها، مسامّ بشرتها، أحسّها، أقترب منها، أُقبّل يدها، أرى أظافرها، إنّها مشعّة، لها رائحة الحمّص. نحن لا نأكل الحمّص إلّا من يديها. يسألني **«كم سعر صحن الحمّص؟ شيكل أم جنيه؟ أم شلن؟»**. كانت تردّد دومًا عبارة «أخو الشلن» لقد غدر بي، «أخو الشلن»، لقد نكح الرومانيات «جدّك أخو الشلن». لكنّ «أخو الشلن» عبارة تُستعمل لشخصٍ حذق شديد الذكاء في أغلب الأحيان، فيما ناديا تستخدمها للشتائم، إنّها تحبّ أن تشتم كثيرًا، تقول أيضًا: «جدّك شرموط». وأطلق ضحكة عالية، وكما يذكر جدّي ناديا تمامًا،

أذكر حبيبي، ومعه أكتشف حقيقتي، وأكون نفسي، وأنا أركض، أركض. أريد الموت في أحضانه، وهو يضع قدميه داخل فمي. يخنقني، أغرق فيه، أحبّه، أحبّه، لا أنساه. لكنّه دائمًا ينساني، ومع هذا أبقى أراه وحده حقيقة. **«وأنتَ، ما أكلتُكَ المفضَّلة؟»**، يقول الجنديّ الإسرائيلي. أنا أحبّ الخُبّيزة والعلت. وأنتَ أيّها الجنديّ المحترم؟ يقف حائرًا: **«أنا أحبّ الحمّص»**، حمّص ناديا؟، أسأله، فيجيب: **«لا، حمّص أبو مارون»**. هل لي بسؤالٍ أيّها الجنديّ المحترم؟ **«تفضّلْ»**، يقول. أعلم أنّني سأموت قريبًا لكن أخبرني، كيف اغتصبتَم النساء عندما دمّرتُم دير ياسين؟ كيف تمّ تهجيرُنا من دير ياسين، هلّا أخبرتَني؟ سيّدي المحترم، ماذا عن كفر برعم؟ ماذا عن إقرت؟ أنت لا تجيب! أقول إنّني رأيتها مرميّةً، مقتولة... الدماء تملأ شارع عبّاس، أشلاؤها موزّعة، أمعاؤها الغليظة، الدقيقة، معدتها، الكبد، الكليتان، عظمها، عيناها، مقتولة، ميتة، إنّهم وحوش. لقد قتلوا لنا ناديا، لقد جفّ الحلم، لقد جفّت الدماء، وتسألني كم استمرّ الانتداب العثماني على فلسطين؟ ألا تعلم؟ حقًا؟ حسنًا، أنت لا تحبّ تاريخنا إذن، وتريد أن تحكي تاريخك أنت، من منظورك أنت، دعني أغيّر صيغة الأسئلة وأسألك في الفنون مثلًا، هل رقصت البافان مرّةً؟ من رسم لوحة دخول المسيح إلى بروكسل؟ أنت لا تجيب، أقسم لك إنّ أسئلتي ليست صعبة. ويقول الجنديّ... **«أمامك خمسُ ساعات، خمسةُ آلاف كلمة، عشرُ أوراق، قلمُ حبرٍ واحد»**. يجب ألّا أنسى عائلتي، يجب أن أحكي لكم عن عائلتي. دعوني أركّزْ قليلًا، أين كنّا؟ نعم لقد تذكّرتُ، تذهب ناديا كلّ يومٍ كي تجلب لي الطعام الصيني. كانت تعلم أنّ طعامي المفضّل هو من المطبخ الصيني، وتعلم أنّني أحبّ السوشي كما أحبّ الحمّص، وأحبّ الصويا كما أحبّ الفول المدمّس، وآكل النودلز بشراهة، وأضع الكثير من الفستق

فوقها. لكنّ الجندي يذكّرني: «الوقت يدهمك ويجب أن تنهي هذه المخطوطة قبل حلول الفجر، وترى الفجر قادمًا من جوف السماء، وترى جبال الكرمل فوقك، تجلس عليكَ، تفعصك. وتَذكُرُ فلسطينَ، في عزّ شبابها، عندما غدرَ الدّروز بكم، وتحالفوا مع إسرائيل، إنّهم أوّل حلفاءَ لإسرائيل أتعلمُ هـذا؟» لا يحقّ لك التّكلُّم عن الـدّروز بهذه الطريقة. **هيّا اشلح، اشلح!** يضربونني على مؤخّرتي، أمّاه، أنقذيني، ناديا، أمّاه، ناديا، ناديا، أتسمعين؟ يشلحُ هو بدوره، ويُظهرُ لي قضيبه الكبير، ويطلب منّي أن ألعقَه، أن ألحسَه، أن أجعله كبيرًا في فمي. وأقـول، أهكـذا فعلتُم بنساء مجد الكـروم؟ وضعتُم قضبانكم في مؤخّرات نسائها، وأنت تقرأ هيغل وتتفاخرُ بأنّك أشكنازيّ مُثَقّف، ووالـدكَ طبيبٌ محترم، يستأصلُ أثـداء الرجال بينما يقتلُ جيشك أطفال فلسطين، لا تعرف سوى أن تتفاخر بشهادتك الحمقاء من هارفرد، أتذكرُ حسّون؟ **«آه، مَن حسّون؟»** يسأل. «ذلك الذي قتلتموه لأنّـه لم يقذف بأمّه لكم، هيّا، انكحني! ماذا تنتظر؟ ضعه داخلي، مثلما وضعتَه في نساء فلسطين كلّها. قلْ للعالم إنّك مجرمٌ ومغتَصب. **«العقاب وخيمٌ، وبلغم عالق في المريء، وأربعة آلاف كلمة فقط، وثلاث ساعات، وقضيب يخترق حنجرتك، كم قضيبًا تذوّقتَ خلال حياتك؟»**، غبيّ، أحمق، أنا أقول لك ناديا الآن. وأنت لا تفكّر إلّا بوضعيات الـدوغـي! يقاطعني: **«نحن هنا كي نستعيد الهيكل الضائع، كي نحقّق مجد أورشليم من جديد...»**. آه، لا يزال يقول لي أورشليم، ما هي أورشليم؟ ضع أورشليم في طيزك، ما رأيك؟ أتعلم ما المحاصيل التي نزرعها كلّ سنةٍ في فلسطين؟ ما الأشجار التي تستيقظُ هنا؟ كم ملمترًا من المطر يهطل كلّ شتاء؟ كم طول ساحل فلسطين؟ خطّا عرضها؟ خطّا طولها، عن بانياس؟ الحاصباني؟ المجرسة؟ أنت لا تعلم شيئًا عن فلسطين، لا تعلم شيئًا عن أرضٍ

تسكنُ بها منذ سبعين عامًا فقط! دعني أسالْك أسئلةً أكثر... **«اصمت، اصمت، اخرس!»**، يقول. ما معدّل امتداد الرمل في البحر من يافا إلى غزّة؟ مترٌ؟ متران؟ أتعلم أنّ هيرودس ليس يهوديًّا، بل كان آدوميًّا، أنت تريد أن تجعل كلّ شيءٍ يهوديًّا، تحسَب أنّك فطنٌ، ويقظ، لا تعلم أنّني أعلم تاريخ هذه البلاد كلّها، منذ نشأتها، شمالها وجنوبها، وشرقها وغربها. أذكر ناديا تقول لنا: إنّ الصليبيين افتتحوا حملاتهم الصليبية في فلسطين من البرّ لا من البحر، من الجنوب حيث قلاعُ الكرمل. لم يفتتحوها من البحر بسبب رياح فلسطين القوية. كانت تقولُ لنا كلّ ليلة، حيفا هي الكرمل، والكرمل هو حيفا، ولا يمكن فصل الكرمل عن حيفا. كانت ترى الكرمل في كلّ شيء. عندما تخيط الأقمشة، وتذهب للتسوّق، وتأخذ الأسماك والأجبان، كان الكرمل يقفُ وراء ظهرها، خلفها تمامًا، وترى ضريح الباب، وتُحملقُ، وتلمعُ عيناها. كان ذلك قبل أن تموت بأيّام. لقد قتلها اليهود، لكنّ اسمها بقي في الغرفة. ناديا، ناديا، أنا الوحيد الذي بإمكاني أن أسرد قصّتك دون نقصان، لقد قال لي حبيبي، إنّه سيضعني في عينيه. لكنّ كلّ تلك الأصوات القادمة من حلقه تخيفني، الآن كيف يمكنه أن يُبقيني في عينيه؟ أنا حشرةٌ قبيحة، يجب أن يأكلني، أو يطمسني، حيث يضع نَعله في حلقي. ناديا أنتِ ايضًا، أطلقتِ وعدًا بأنّكِ ستُبقينني في عينيك للأبد. اللعنة، أنتِ تنسين كثيرًا، تنسين من أكون؟ تخافين من وجودي حولك. ناديا أنا حفيدك، أتذكرين؟ الليل يسقطُ، هذا الفجر ليس ملكَنا. ولكن لماذا لَونُ الفجر ورديٌّ هكذا، بسبب الصباح. نعم، ألا تعتقدين أنّ هذا الصباح مرتبطٌ بالليل؟ ومن دون الليل لا يُوجد صباح. وحين يجنُّ الليل تصبحين بائعة هوى. وعندما يبزُغُ الفجر تبدأ الولادة الأولى للأشياء؟ الفجر يرتفع، ورديٌّ وأحمر، أسود وأبيض، أنتِ بالقرب منّي، نشاهد كيف يُفسدُ الفجر السماء، يكسرُها،

يشقُّها، أتسمعين صوتَ الفجر يا ناديا؟ لكنّي بدأت أعي أنّي لستُ وحدي هنا، وأنّنا نجلسُ في الغرفة، نحن ثمانية، لا أكثر، يحدّق بعضنا في بعض، نجلس مُكبّلي الأيدي. أسردُ الحكايات، ننتظرُ حلول الفجر، ومع الفجر ينتهي كلّ شيء، سنموت. لكن أنت الذي هو أنا، تجلسُ هناك تُحملقُ في الحائط المُقشّر التالف، وبينما تحسَب نفسك تمشي وحيداً وتفكّر، وتقول: آه، لماذا لا أموت؟ لماذا أبقى على قيد الحياة، ورائحة السجائر تلتصق فوق الثياب، وتشعر بأنّ آخر نفس في العالم قد أعلن موته، وأنت مذبوح، وتفكّر في ناديا، وتريد أن تكتب قصّة ناديا، لكن ناديا ليست وحدها... هناك سيفا، ميسا، بيبو، نور، أمل، هامو، عيّوش، سامو، أسو، ماريا، شافو، دانو، رورو، سارو، فريدو، آه الكثير... إنّك تحاول أن تتذكّر أسماءهنّ جميعًا، لكنّك تريد أن تبدأ أولًا بقصّة ناديا، هذا حقّ شرعيّ، أنا أفهم أنا. إنّ كلّ الأشياء بدايتها ناديا، وتعلم حضرتك، أنّ ناديا ليست وحيدة، وتعلم أنّ ناديا مختلفةٌ عند كلّ واحدٍ من هؤلاء. فهي أمّ بيبو وجدّة سيفا وميسا، وهي أمّ أمل وعيّوش وسامو وأسو، لكنّها لا تعرف سارو وفريدو. ناديا شهيّةٌ، وتُحضّر أطباقًا شهيّة، إنّها مُذهلة. تعمل كلّ يومٍ من الخامسة صباحًا حتى السابعة مساءً، أنتَ لا تُقدّر مَشقّتها، إنّك لعين. لا تُشفقُ عليها، إنّها لا تشتري ثيابًا جديدة مطلقًا، تُحاول أن تُطعم صغارها، إنّه ليس ضربًا من البخل، بل إنّها من أهل الكرم. لكنّها لا تُحبّ البَذْخَ والمظاهر. تكتفي ببعض (الشلحات) – كما كانت تقول – في خزانتها، وبعض التنانير القصيرة، والكثير من الشالات الملوّنة التي تلفّها حول عنقها، وتحبّ أن ترشّ العطرَ كثيرًا، عطرٌ مُركّزٌ ثقيل. ليس شانيل أو ديور بل دولتشي غابانا، لكنّه أسوأ عطور غابانا بالتأكيد. لكن مهلًا، أنتَ تعلم أنّك لا تستطيع سرد قصّة ناديا وحدها، لأنّ ناديا ليست وحيدة، إنّها تجرّ خلفها قافلةً من الناس، وتعلم أنّ سيفا ليست

وحدها، بل تجرّ خلفها ريكو وهابو، وهابو يجرّ خلفه رامز، وأمل تجرّ خلفها المالك، والمالك يجرّ خلفه الأميرة وسارو وفريدو، وهكذا دواليك... إنّهم أشخاصٌ يجرّ بعضهم بعضًا، يذبح بعضهم أعناق بعض، يرقصون، يفرحون، يبكون، يضربون، يملكون المال، يُصبحون فقراء، يأكلون سوشي، ويأكلون كبابًا. ويضع جدّي قدميه داخل فم ناديا وبنطاله أصفر صارخ. تعود ذاكرتي الأولى نحو أمّي وأبي، لا نحو ناديا وجدّي أو أوسلو، كيف يجرؤُ المالك على خيانة أمل. حقيرٌ ووضيعٌ وتافه، لقد أحبّته بشدّةٍ، ولا أعلم إن كانت قصص الحبّ من طرفٍ واحد، يُطلق عليها قصصُ حبّ. لكنّي أعلم أنّ أمل قد تعذّبت كثيرًا خلال حياتها. لا يزال ذلك المشهد في ذهني حيًّا، مُدهشًا، يثير استغرابي ويُغضبني. أفقدُ نفسي، أنا طفلٌ عمري بالكاد ستُّ سنوات، أرى أمل كلّها دماء، مسحوبة من شعرها على طول شارع ستيلا ماريس في حيفا، تبكي وتصرخ، وشعرها الأشعث يكاد ينفكّ من رأسها. الشعر يتقطّع من فروة رأسها، لقد أمسك بها من عنقها، لقد خنقها، إنّها تموت... ترتدي حمّالة صدرها وشورتًا قصيرًا – من ماركة كولومبيا – تستغيثُ، تُطلقُ شهقاتها نحو الهواء الطلق، وتضع يدها خلف ظهرها. وبالكاد تقف على قدميها، وأنا أُحملقُ في دموعها. تنسحبُ من رأس الشارع حتّى آخره، الدماء تُغطّي جسدها، وصوتٌ مثل النعيق الحزين. إنّها حزينة، أرى الحزن على طول جسدها. إنّها غارقةٌ في الحزن. أذكر هذا المشهد جيّدًا، ولا أنساه، كيف أنساه؟ لأنّ الذاكرة الأولى مثل البزاق فوقي. حسنًا، لماذا لا نُرتّب الأمور منذ البداية: نحن متّفقون على أنّ ناديا هي الأمّ الكبيرة. جدّي ذلك السكّير الذي يبحث عن الخائن الذي باع فلسطين ووافق على أوسلو. وأمل هي ابنة ناديا، والمالك هو زوجها. وبالتالي أنتم تعلمون أنّها عائلةٌ مكوّنة من ستّة أفراد: هامو، عيّوش، بيبو، سامو، أسو وأمل.

وهؤلاء بدورهم يجرّون خلفهم شخصياتٍ كثيرة. حلمي هو أن أكتب شيئًا مثل «مئة عام من العزلة» أو شيئًا يشبه آدا أو بروست، لكنّي أعلم أنّي أفشل، لأنّ ماركيز لم يكتب شيئًا عن vulva زوجته مارسيدس، ولم يردّد بروست يومًا كلمة شرموط. أمّا نابكوف فقد قرّر أن يحكي لنا لوليتا كما قرّرت أن أحكي لكم حكاية ناديا الفاعور، عدا أنّهم يملكون أوراقًا وأقلامًا، أمّا أنا فكائن حزين أكتب على كلّ شيء، على الحائط، على الصخور، على أوراق النبات، على جسدي، أكتب بالفحم، الحبر، والدماء. وترون حكايتي مفكّكةً، مُهلهلة، لا طعم لها. تشعرون بناديا وجسدها الناعم الخالي من الشَعر. يطفو عليكم الإحساس بالشفقة تُجاه عائلتي، وتُجاه ناديا الميتة. إنّها حيّة، ناديا حيّة، ناديا لا تموت. لا تستطيع أن تموت، لا. لم تُقتَل في مجزرة دير ياسين أو مجد الكروم، ولم يقتلها اليهود وحدهم فقط، لم يقتلها ذلك النظام الاستعماري وحده، أو ضجيج الأسواق في وادي النسناس، أو حتى صوت الأبواق. كلّهم قد قتلوها، وباعوها، حتى بنطال جدّي الأصفر. «كنتُ أقول إنّ نهاية عائلتي ليست نهاية شريفة، بل هي نهاية وسخة، قاحلة، تقبعُ في القاع، مصيرها الجحيم، وإنّ وجود الله ليس سوى خدعة. ويقول لي بيبو إنّه قد أنقذ العائلة من مصائر بشعة. ويقول سامو إنّه لولاه لما اشترينا البيوت في حيفا. وتقول لي بسيل إنّني لا أشبههم. أنا أحبّ بسيل، بسيل صديقتي الوحيدة ولا شيء يعنيني سوى بسيل، طبعًا بعد ناديا. ويسألون كيف أذكر بسيل، إنّها صديقة الطفولة. أنا لا أذكرها لأنّي أعيشها، ولا أذكرها لأنّي لا أنساها، ولا تذكرني لأنّها لا تنساني. وأشعر تجاهها بعاطفةٍ غريبة، عاطفةٍ خاصّة، شعورٌ مثيرٌ للدهشة. لكنّها تخاف أن تقول لي شعورها، تشعرُ بالخوف، ترتجفُ، أشعر بدموعها تنهار، إنّها عالقةٌ معنا هنا، أراها بعيدة الآن، تحوم في الغرفة، وتخبطُ رأسها في الحائط تريد

الخروج، تريد أن ترى حبيبها وأمّها. لكنّها محبوسة مثلنا هنا، معلّقة بالأصفاد، تشتهي لبن اليوغرت، وموسيقى أم كلثوم التي كانت تسمعها طوعًا وهي صغيرة. وأمّا أمل فلا أزال أراها تزحف على قدميها، تحاول صعود السلالم. تئنّ، تخلعُ ثيابها، ترمي ثيابها من ماركة كولومبيا والمالك يستمرّ بضربها على رأسها. يُغلق لها فمها، ويريدها أن تكون عشيقةً له في الفراش، بعد ضربه المبرِّح، وابنهما في الغرفة يسمعهما ويشاهد الأفلام الإباحية، ويئنّ معهما، fuck fuck. نسيت أن أخبركم أنّ دودي نائم. دودي ابن أمل الأصغر. يفقد عقله كلّما كبر، وأقول للجندي إنّني لا أعرف بلدًا يُدعى أورشليم. وتهمسُ بسيل لي... «اصمت سيقتلوننا، أنت لا تفهم اللعبة، إنّها لعبة خطرة، لا بل أنا أفهم اللعبة جيّدًا». نحن عالقون هنا، لا نستطيع أن نخرج، بسيل تهمس مجدّدًا في أذني، لن نخرج من هنا إن لم تكتب حكايةً تُرضيهم، يجب أن تكتب حكاية ترضيهم، أموت، على جثّتي، لن أكتب أيّ شيء لإرضاء أيّ أحد. أكتب ما أريده، بسيل لا تكوني حمقاء، أعلم أنّك تريدين الذهاب مع صديقك ميدي وتتركيني وحيدًا في ورطة مع هؤلاء. لكنّي لن أقول سوى الحقيقة: أنا لا أعرف بلدًا يُدعى أورشليم! تدّعي بسيل أنّ كلامي هُراء، أو بالإنكليزية trash وما أقوله ليس سوى ثرثرة، أو خرخرة. وأقول لها إنّ ناديا قد ماتت من أجل حيفا. لقد أنّت ناديا تردّد كلمة الموت دائمًا رغم أنّها تخافُها. لكن ماذا يعني لها الموت من أجل حيفا؟ لماذا يموتُ الإنسانُ من أجل وطنه؟ لماذا لا يموت الوطنُ من أجلنا؟ ولماذا لا يبزغُ الفجر الآن، الآن، ويلجُ السماء، فتنتهي حكايتنا ونموت! **«أتعلم ما مشكلتك»**، يسأل الجنديّ، ويجيب بنفسه: **«إنّك لا تستطيع أن تسرد حكاية مرتّبة»**. لا يعلم الجنديّ أنّني أكره الحكايات المرتّبة. أحبّ المتاهات، لكنّ القرّاء لا يحبّون المتاهات ويجدون صعوبة في

قراءتها. لن أكتب روايةً شبيهةً برواية الألعاب الخطرة، أو حتّى مثل رواية نساء وحيدات، وأعلم أنّي لستَ توماس مان أو ألكسندر دوما. ولن أكتب مثل رواية ساما أو ملحمة الجاوتشو مارتين فييرو أيضًا. أكتب لأنّهم طلبوا منّي الحقيقة، ويجب أن أكتب الحقيقة. حقيقة قد تكون مختَلَقة، لكن عليها بدورها أن تُنقذنا من جحيم الله لا دانتي. **«لقد فهمنا الآن»**، يقول الجنديّ ويتابع: **«أنت تريد أن تكتب رواية أجيال. رواية عن عائلتك، عن أفراد عائلتك. لسنا أغبياء صدّقني، نحن نفهم جيّدًا ما تريد قوله، وتريد أن تحكي لنا عنّا نحن اليهود. وعن حيفا والشوارع والأضواء، والملاهي والمقاهي البهيّة، وطوابع بريد قديمة، وثياب ناديا الممزّقة، وبيتكم المنهار، وعن الأسِرّة المحطّمة، والكؤوس المكسورة وبنطال جدّك الأصفر، وناديا تلك التي تتّهمنا بقتلها! وتصرُّ على أنّك لا تعرف بلدًا اسمه أورشليم، وتصرُّ على أن تجعل كلّ يهود الأرض قتلة. لكنّي أستطيع أن أرى الخوف في عينيك. وأعتقد أنّ وقت قول الحقيقة قد حان، لكن أخبرني ممّن تخاف؟ أشعر بأنّك لا تخاف من شيء. أنتَ متردّد قليلًا. تخاف أن يعلم أفراد عائلتك بمجونك وحقيقتك وحبيبكِ الخفيّ، وأنت تعلم أنّهم يعلمون كلّ الحكاية. لكنّهم يخافون من مواجهتك. أنت تكتب هذا عنهم من وجهة نظرك أنت وحدك، لكنّهم معبّؤون بأسرارٍ أنتَ لا تعرفها، ولا تجرؤ على مناقشتها، قل لي الآن أتخاف من الموت؟»**. أنا لا أخاف من الموت، أنا أخاف أن أموت من دون أن أكون نفسي، أخاف أن أموت من دون أن أحبّ، من دون أن أحقّق أحلامي، من دون أن أمشي فوق الماء. الإجابة النهائية، هي لا، أنا لا أخاف من الموت، لكنّي لا أريده. **«أتذكر آخر كلمات ناديا؟»**، سألني الجنديّ. Indeed لقد قالت إنّ جدّي رغم قذارته لا يشبهنا. إنّه إنسانٌ يملكُ

جهازًا هضميًّا، وقضيبًا ذكريًّا، ورئتين وقلبًا، وعقلًا كي يفكّر. كانت تقول إنّها تراقبُه دائمًا. إنّه يشربُ القهوة مثلنا، يأكل الباستا الإيطالية بشراهة، يقلي البيض، ويصنع البان كيك. يستحمّ مثل الألمان، يضع على جسده سائل استحمام ويفرك جسده جيّدًا. إنّه رشيق، نحيف، قفصه الصدري يكاد يبزغ من جسده. يُمسك الملعقة ويأكل بها، ثمّ ينظّفها. يتأمّل اللعاب المُلتَصق على ملعقته. إنّه ينظرُ إلى تلك الأشياء التي يصعبُ النظر إليها، أشياءُ مُختبِئَةٌ وصغيرة، لكنّها واضحةٌ في الوقت نفسه، وتختفي مع الليل في الكثير من الأحيان. يذهب لاستكشاف الغابة، رؤيتُه محدودة، عيناه تتّصلان بالأشجار، يسمع صياح البوم. يتحسّسُ الطريق، يستكشفُ الغابة لكنّه يستكشفها ليلًا حيث تمشي الأحلام فوقه، مُحاطًا بالأشجار من حوله، وناديا تلحقُه. لكنّه لا يعي هل هذا حلمٌ أم حقيقة. كيف تسمعه؟ إنّ صوته يختنق. يبصقُ على الأرض، تتركُه وحيدًا، تهربُ من النافذة. النافذة تؤدّي إلى الغابة، وهو يسمع طفلًا صغيرًا يبكي ويشعر بالبرد، لقد أنجبته اليوم، لا يزالُ في القِماط. إنّه أوّل فرحةٍ واسمه أسو. وأذكر أنّ جدّي نزل إلى الغابة كي يتقيّأ، شعر بالغثيان وبتقلّباتٍ في معدتِه، لذلك أوقف السيّارة وركضَ نحوَ الغابة كي يتقيّأ ويُفرِغ معدتَه. لكنّه لا يذكرُ أين أوقفَ السيّارة، لأنّ عقله لم يكن يذكر سوى أوسلو. فقد تكون سيّارته في الطرف الآخر للشارع من الجهةِ الأخرى للغابة والأصوات تتنقّل في أذنه، وهو يردّد أولى كلمات الله، ويعلم أنّه مطرودٌ من هذه الأرض. ويعلم أنّ ثمّة الكثيرَ من المداخل في الغابة. يشعرُ بالتيه، سمع صوت امرأةٍ تُناديه. لكنّه لا يراها، إنّها ناديا لكنّها تختفي مع الأشجار. تصير خضراء مثل لون الأعشاب، يرى ظلّها يتحرّك وأمواج صوتها تنبثقُ من الهواء. يتابعُ المشيَ ويبحث عن السيّارة المفقودة، أين أوقفها؟ ربّاه! إنّه يضيع في الغابة. والشمسُ ليست في سَمْتها،

إنّها تغيب. تختفي بين الغيوم، إنّه الغروب. يكتشف أنّ هذا صحيح! الشمسُ في مغيبها، نزل الليل. يجب أن يجد السيّارة قبل حلول المساء، إنّه لا يملك مصباحًا كي يضيءَ به الليل. ها هي تخرج من الغابة مثل بتلةٍ طويلة، صهباء شهيّة، مثل وجبة روزيتو مليئة بالكريمة والفطر، أو مثل ساڤجانيا مليئة بالمربّى. إنّها شهيّة، لها رائحةٌ قويّة... تضيء الليل. يشمّها لكنّه لا يستطيع أن يراها. يشتهيها، يشعرُ بالجوع. وتغمرهُ الرغبة في أن يصطاد غزالًا، ويذكرُ أنّه كان يذهب أيّام السبت مع والده كي يصيد الغزلان وطيور السمّان، وأحيانًا الحيوانات المفترسة. ويلاحظ أنّه لا يملك بندقيةً ولا سكّينًا. وأنّه الآن مجرد إنسانٍ وحيدٍ تائهٍ في الغابة، يبحث عن سيّارته. يتذكّر ماضيه بهدوء. يطرحُ على نفسه أسئلةً قد تجعله يفرّ من هنا، ويهرب دون أن يأخذ ناديا معه. يريد إنقاذ نفسه لكنّه يكتشفُ ألّا أسئلةَ تأتي على عقله، وأنّ الليل لا يضيء إلّا من خلال وجود ناديا. يجب أن يبحث عنها في قلب الغابة، قد يجدها. لكنّها مثل الحوريّة. تمدّ يدها إليه، تطلب منه بصوت خافت أن يأتيَ نحوها. يشعرُ بالخوف قليلًا ويرتعش، يُكمل طريقه، ويسمع صوتًا لطفلٍ رضيعٍ يبكي بشدّة. لقد كانت هنا قبل قليل، تركته وحيدًا وذهبت، ناديا امرأةٌ قاسية ومن غير قلب، يقول. إنّها تعمل في خمّارةٍ قريبةٍ من منزله، إنّها بغيٌّ من يثرب. والحكاية مثل مجهولي الهُويّة، ثمّة أشخاصٌ يعلمون عنّا كلّ شيءٍ من دون أن نعرفهم. يتعقّبون خطواتِنا وتحرُّكاتنا، يسمعون آراءنا، يعرفون ما نقرأ. يشاهدوننا من النافذة عندما نبدِّل ثيابنا، والثياب الداخلية من ماركة كالفن كلاين مرميّة هنا وهناك. صوت ناديا في دهليز الأذن. زقزقة ضوء النيون فوق جدّي وفوق العُمدة. وناديا ترحلُ ويلحق بها، تمرُّ بشوارع كبيرة، تنظرُ إلى إشارة المرور وتعبر. لكنّها تقف أمام دكّانٍ صغير يبيعُ المعلّبات، تأخذ الكثير من

عُلَب السردين وسمك الحنكليس، وبعضًا من الدجاج المثلّج. تفتحُ المعلّبات وتبدأ تأكلُ بنهمٍ شديد. لا تراه، تشعرُ بأنّه قريبٌ منها. تمسك ملعقتها، وتبدأُ بوضعِ اللقمة داخل فمها، كم هي شهيّة! يشمُّ بعد ذلك رائحة براز كلب، ويقضي حاجته أمام ناديا الفاعور. يا له من مشهدٍ مروّع، لكنّها تستمرّ في وجبتها الشهيّة التي لا يمكن تركُها. ويُخيّل لجدّي أنّها تُحاول النّهوض لكنّها عالقةٌ بين ذراعيه، مقيّدة، لا تستطيع الخروج من جسده. إنّها مستيقظة، يسيلُ مخاطٌ من مهبلها. يحاول أن يجمع ثيابها؛ يريدها أن ترحل. الفجرُ يقترب، ويجب أن تغادر. إن لم تغادر فقد تفسدُ كلّ شيء. تنهض ومن فرجها تسيلُ مادّةٌ صفراء مخاطية. لا، ليس بولًا، إنّه شيءٌ آخر لزجٌ، يتكوّر ويصبحُ مثل العجين. يرى بطنها، وصدرها الكبير مُشعًّا. صارت المادّة الصفراء تخرجُ من جميع أنحاء جسدها. النافذة مغلقةٌ بإحكام، تُحاول فتحها لكنّها لا تستطيع، تحاول مجدّدًا، تُخفق مجدّدًا. تقبضُ على كرسيٍّ صغير، وتكسرُ النافذة وتخرجُ منها، لكنْ هناك بقعُ دمٍ، آه يا إلهي، لقد خدشت صدرها، هذه مجزرة. الحزنُ يسيلُ منها كاللعاب. خرجتْ من النافذة، وانطلقتْ نحو حياةٍ جديدة. يبدو أنّها لن تعود، لن تأتي إلى حيفا مجدّدًا، ذاهبة كي تأخذ الوثائق. تُحاول أن تسرع قبل أن تُقتل، إنّها ميتةٌ لكنّها لا تعي موتها. تُحملق به، لكنّها سرعانَ ما تتلاشى. ذهبت ناديا، هربت وصرخت، وأطلقت صدرَها للحياة. راحت تجلسُ على الطرقات تفتحُ المعلّبات، وتسرق من جدّي كتاب الألعاب الخطرة، وقصائدُ تنزلقُ من جسدها. وتمسحُ الأرضية وتغسلُ أطباقًا قد أكل فيها قبل أيّام، لكنّها تكاسلت، ولم تغسلها. كانت تُخبره عن أهمّية الجسد، وأنّ الجسد عميق، مثل الله، لكنّ الحبّ شيءٌ أعمق، أيضًا مثل الله. كيف أفسّر هذا؟ إنّه الحبّ، يجلس في القلب ويذبح الأعناق، وينزلقُ إلى الأرجل ويجعلك مشلولًا. إنّها مسألةٌ

معقَّدة حقًّا. تخلع ناديا ثيابها، وتشعر بالاسترخاء، تُريدُ النوم، وأراها تتلاشى، تصير طفلةً صغيرة تُقلِّم أظافرها، وتسرِّح شعرها، وتضعُ فراشاتٍ على رأسها. لقد خدعها مظهرها، وخدعها الجمالُ الذي تلبّسَ بها، لا تعي أنّ جسدها فارغٌ، يُشبه عتمة الليل، قابلٌ للاستكشاف لكنّه وعاءٌ فارغ. تحاول أن تجد شيئًا مختبئًا في أعماقه، لكنّه لا يحوي أيّ أعماقٍ داخله. هذا الجسد الذي بحوزتها ليس ملكها. إنّه ملك جدّي حبيبها، وكنتُ أراه خُفية، إنّه يسطَعُ بوضوح. شعر عانتها أجعد وكثيف. وكنتُ أشمّ رائحتها خُفيةً من دون علم جدّي تشبه رائحة الموز أحيانًا، وأحيانًا تشبه رائحة اللبن. تعصر ثديها، يخرج منه لبن، لكنّها ليست حاملًا، ولم تتذوّق طعم الأمومة بعد وفاة جدّي. تقبض على ثديها بقوّة، ثمّ تعصره جيّدًا كما تعصر البرتقال، وحينها تخرج منه مادّةٌ لزجة، مادّةٌ بيضاء، إنّه لبن. لكنّها تعلم أنّه ليس لطيفًا أن تخفي عنّا سرًّا، هل حملت بعد موت جدّي؟ لكنّها كاذبة، وفاسقة، ويقولونها بالإنكليزية:

Punk, you still a punk I think so

CANTO VI: ABBAS ABBAS

عبّاس، عبّاس، استيقظ. أنت كلب لعين، عبّاس، أين أنت؟ أتسمعني، إنّك لا تسمعني، انظر إلى الأطباق المحطّمة، وإلى سلّة الغسيل. بنطلونك وجواربك داخلها، والبوكسر خاصّتك فيها! عبّاس، عبّاس، استيقظ، أنتَ كلبٌ لعين. عبّاس، أنتَ كلبٌ من نوع أكيتا. كلاب صيد ماهرة لكن يمكن ترويضها في المنازل. وماما ناديا قد روّضتك في بيتنا الكبير. لكنّك لست من كلاب أكيتا السلالة اليابانية بل الأميركية، وتبلغ من الوزن حوالي 130 رطلًا وارتفاعك قرابة 28 إنشًا، وتحبّ أن تحكي الحكايات. وتريد أن تصبح شاعرًا كبيرًا. لقد دخلت

بيتنا صغيرًا جدًّا، تضحك بشدّة وتحبّ أن تحبو، وتطوف المنزل كلّه حبوًا، وتشعر بالألم لأنّك تعلم أنّ ماما ناديا تحبّني وحدي أنا. وأنت لست إلّا كلبًا لعينًا وغولًا كبيرًا، اسمه عبّاس، يُبحبش في القواميس، في الكلمات، داخل الكتب، يمزّق كتبي. أنت تحبّ البحبشة! وتحبّ نيسان! تحبّ فصل الربيع! لأنّك تتزاوج في الربيع، وتنجب أطفالًا كُثرًا. أخبرني كم عمرك الآن؟ صغيري عبّاس، انظر، إنّ قدمَيك تكبران، تتدفّقان وتنتفخان، كم مقاس قدمك؟ أو طولك؟ عبّاس، قل لي؛ كيف يأتي المساء؟ وأنت تلتهم كلّ شيء. أوه، أنت كلب أكيتا يحبّ الأكل ويلتهم كلّ الوجبات. لا تكتفي بطعام الكلاب فقط بل تأكل أكلنا أيضًا، وتغنّي طوال الليل بعد أن تتقيّأ الأكل لأنّك فجعان. اسمع! ما أغنيتك المفضّلة؟ أنتَ تفضّل الأغاني الحزينة، لأنّك كلبٌ حزين. وعندما ترى امرأة في الطريق، تقترب منها بحذر ثمّ تنقضّ عليها كي تلتهم صدرها. أنت تحبّ ذوات الصدر الكبير. وتتمنّى أن تمضغ صدر حبيبتك بين أسنانك. لكنّك PANSEXUAL أحيانًا، وكوير أحيانًا أخرى، وتحبّ الرجال أيضًا. لكنّك تفضّل النساء لا الرجال عندما نتحدّث عن الصدور. يا عبّاس، إنّك تعيش في كلّ مكان. عبّاس، كم من العمر تعيش؟ لقد عشت سابقًا في عالمٍ آخرَ لا نعرفه. طالما كان هناك ذلك العالم، بعيدًا عنّا، لكنّك تذهب إليه وتعود، لأنّك تشعر بأنّ عالمنا الحقيقي ينهار فوقك، وتمشي في الشارع بينما تذبح نفسك من الصراخ، وسرعان ما تعود مسرعًا نحو الدار التي حوتك طيلة حياتك، حتى اليوم الذي ماتت فيه ماما ناديا، ذلك اليوم المشؤوم الأسود. لقد هربت من البيت مثل الخسيس، لأنّك تشعر بالغيرة، الغيرة تقتلك. وتطوف في أرجاء البيت، كي تحطّم الجدران، وتسرق الملاعق من مطبخنا، كي تمزّق الشراشف، وتقتل الأسِرّة، بعدها تعود كي تعتذر من ماما ناديا. وماما ناديا بدورها تعاقبك، وأنت هشٌّ وضعيف تختبئ

داخل الفرش، أو تحت السرير. مسكين، عبّاس، يا عبّاس، عبّاس، يا عبّاس، عبّاس، اسمع! أنت لا تسمع. أنت تقول إنّك تحبّنا، لكنّك لا تحبّ عائلتك، وتقول إنّي أنعتك دائمًا بالكلب. لكنّك لست كلبًا عاديًا على الإطلاق. حضرتك كلبٌ محترم من نوع أكيتا وهذا مشرّف WHAT A JOY! أن تكون كلبًا قويًّا وماهرًا ومسيطرًا، أن تتنقّل بين كلّ تلك الأشياء بينما تنمو أطرافك، وأنت حزينٌ والأشجار تموت، أتذكر ماما ناديا؟ أخذتك طفلًا لا يزال في قماطه من بيت فاطمة الغول. لكنّك تصرّ على النباح، وتنبح كلّ ليلة، وتسير نائمًا. حياتك مسلّية لكنّها تضجّ بالأنين والكراهية. وبما أنّني أذكرك الآن معناه أنّ قلبي يحلم بك، وبما أنّي أذكرك رغم أنّك حقير، معناه أنّني أشعر بك على الرغم من ابتعادك. أشعر بكَ فوقي، إنّك تلسعني، عبّاس أنا أشعر بك جيّدًا. تعال يا عبّاس، دعنا نلتقِ الليلة، أنا لا أكرهك، نعم هناك شعور بالكراهية داخلي تجاهك لكنّها ليست بالكراهية المطلقة. إنّها كراهية تذهب وتعود. تعال نلتقِ الليلة، هل أنت متاح؟ عبّاس أجبني، لا تكن أنانيًا. أجبني! إنّ قلبك يشعر بالغرام، وحين ترى ساقيها المصقولتين النحيلتين الجميلتين، تذوب! وحين تذوب، تبقى على الطرقات. لا تلملم نفسك، لكنّها صبيّةٌ صغيرةٌ تفرُّ منك، إلى أين ذاهبة وشعرها يطير وجسدها يغويك وأنت كلب صيدٍ ماهرٌ وقويّ. إنّك تلحقها، تركض خلفها بسرعة، لكنّ ساقيها رشيقتان، تختفي في الازدحام، وأنتَ قاتل! وهي ليست حبشية على الإطلاق، هي من فلسطين. إنّك تجلس تنتظرها كلّ ليلة، كي تأتي إلى فناء الدار، لكنّها تذهب نحو حضن أبي. وهي طفلة عاشقة، وأنت تشعر بالحرقة، تلتهب، لكنّك تبتسم، وتعلم أنّها ستعود إليك! لأنّها دونك لا تعيش، دون الكلاب لا تعيش. عبّاس، أنت لا تموت وماما ناديا تحبّني أنا وحدي. ابنها الوحيد بيبو، ومن بعدي تحبّ عيوش، لكنّها لا تحبّك،

لأنّك قتلتها! لكن احكِ لي يا عبّاس. هناك سؤال يراودني منذ مدّة... ما الطبيعة في المطلق؟ كيف تكون؟ وهل فقط بتزاوج المرأة والرجل نكون حققنا الطبيعة؟ احكِ لي كيف يكون التزاوج بين الرجال والنساء. احكِ لي عن كلّ تلك الأشياء التي أجهلها أنا وتعرفها أنت، إنّني لا أعرف كيف أتزاوج. قل لي، لماذا الرجال لا يتزوّجون بعضهم من بعض. لماذا خسف الله قوم لوط، لماذا تنعت نفسك باللوطيّ أحيانًا، ولماذا قتلت جدّتك ناديا؟ وما الأشياء التي تقول عنها فوق الطبيعة؟ عبّاس، لقد سافرت نحو إيطاليا، وبعدها ذهبت نحو بلاد المجر. إنّك تطوف العالم في السرّ من دون أن تخبرني أنا. صديقك الوحيد بيبو! يا لكَ من مشاكس. عبّاس، لقد سافرت كثيرًا آملًا أن تجد الحبّ، لكنّك لوطيّ لعين. لا تعلم كيف يكون الحبّ. متى تتزاوج؟ في نيسان؟ كيف تحيض؟ ما أطول فترة حيض قضيتها؟ وكيف تعمل الدورة الشهرية لدى الرجال؟ يقولون إنَّ القمر يشعر بالحزن ويقضي على المرّيخ، ثمّ تبدأ الدورة الشهرية الخاصّة بالرجال. أنت كلب أكيتا لكنّك رجلٌ أيضًا. وأيضًا امرأةٌ وتعلم جيّدًا عمّا أتحدّث. لكنّي وعدتك أن يبقى هذا سرًّا بيننا لا يعرفه أحد، لقد خبّأتُ هذا السرّ في قلبي، في أعمق جزء من جسدي. خبّأت سرَّنا داخل الأسِرّة، فوق الشراشف. عبّاس، كيف تخرج من نيسان باكيًا وتستقبل الصيف بالأحزان، وتشعر بالحزن فقط لأنّك فشلت في أن تحبّ. الحبّ، الحبّ... تبقى تردّد هذه الكلمة طوال الوقت، ما أقساها. وتقول إنّ هذه الأرض لا تعني لك شيئًا، لذا تفضّل أن تذهب نحو العالم الآخر كلّما شعرتَ بالملل الشديد. أنتَ تبقى تبحث عن أشياء عجيبة، وتقول إنّ إيطاليا عادية جدًّا فهناك شوارع وبنايات وقصور ونفايات وناس، تمامًا مثل حيفا. ففي حيفا شوارعُ ومبانٍ وقصورٌ منهارة ونفايات وناس. نعم ناس. ناس تموت. ناس تفرُّ من الديار وتهاجر وناس تُعلّق من أنوفها. وناس تقضم مؤخّرات

بعضها. تلك حيفا التي تعرفها. حيفا، قريةٌ صغيرةٌ وسخة، شديدة القذارة على الرغم من جمالها. لكن كم سنةً يعيش المرء في حيفا وكم سنةً يموت؟ عبّاس، لعلّ كلّ شيء تحبّه، مصيره الهلاك، انظر كيف يكون شكل القمر في المحاق. وأنتَ في دورتك الشهرية تقول شِعرًا كثيفًا، كلماته لا تنضب. آه الشعر، ذلك الشيء الذي لا تستطيع أن تتركه. ذلك الشيء الذي في داخلك. ماما ناديا قد فشلت في أن تكون شاعرة. لكنّك يا عبّاس، أصبحت شاعرًا كبيرًا على هيئة كلب أكيتا ضخم يلتهم طعام المنزل. اسمع! هل زرت ليما؟ هل قطعت جبال الأنديز مشيًا على القدمين؟ هل زرت ماغريت؟ نعم لقد قلت إنّك تحبّ ماغريت كثيرًا، وقد زرته أثناء رحلتك في بروكسل. لكن ما لوحتك المفضّلة؟ قيم شخصية؟ أم العشّاق؟ أم شمسية هيغل؟ ولماذا ماغريت بالتحديد؟ بماذا تشعر عندما ترى لوحات ماغريت؟ وأرى أنّك تفكّر في أن تسرق لوحة بينما تجول في متحفه. وفجأةً ترى سيقان المارّة، وحضرتك تحبّ السيقان كثيرًا وتريد أن تلحس سيقان الرجال. سيقان من النوع القويّ، سيقان لاعبي روغبي، لا كرة القدم. وتشعر بشعور غريب حين ترى سيقان الرجال. قل لي ما الفرق بين سيقان الرجال وسيقان النساء؟ سيقان النساء طريّة، لكن سيقان الرجال قويّة. والإنسان يحتاج إلى الطريّ والقويّ معًا. قلت أيضًا إنّك تحبّ أن تجمع طوابع بريد قديمة. وتحبّ كلّ شيء مصنوع من الأنتيكا. وتحبّ أيضًا صدور الرجال لأنّها واسعة، وتحلم بصدر رجل واسع وكبير كي تغفو فوقه. وتحلم بأن تلتهم صدرًا كبيرًا لامرأة غانية، وتحلم بماما ناديا. عبّاس، كيف يتلاشى الإنسان من دون أن يذهب نحو طيّ النسيان؟ كيف ينجح الإنسان في حبّ ذاته؟ متى يقول الإنسان، أوف إنّي أحبُّ ذاتي. متى يكفّ الإنسان عن أن يكون طفوليًا، من دون أن يكفّ عن أن يكون CHILDLIKE. عبّاس، أخبرني هل زرت أيّ طبيب نفسيّ في

البلاد؟ ماذا شخّص حالتك؟ انفصام؟ عبّاس، أجبني، كيف يكون الليل وأنت تسير في الشوارع نائمًا؟ أتسمع أصوات الليل جيّدًا؟ أذكر أنّك لا تحبّ الركض في وضح النهار بل تفضّل الليل، لأنّك في الليل تضيع، وماما ناديا تبحث عنكَ في تقاسيم الليل بينما أنتَ تضيع. أوه عبّاس، أنتَ تضيع. عبّاس، ماما ناديا تموت. أنتَ قتلتها. إنّي لا أريد قتلك، أريدكَ أن تعيش، لكنّك مريض. أنتَ مريض يا عبّاس، والخرف يلتهم عقلك، وتنسى أنّك قتلتَ ماما ناديا، لقد قتلتها. لقد قتلتَ جدّتك ناديا يا عبّاس، بينما كنتَ تراها فتاةً أخرى، فتاة في العشرين من عمرها. لقد ذبحتها من العنق. عبّاس، أنا لا ألومك، أنتَ لست سوى مسخ. ينتقل ما بين كلب أكيتا وبشر. ما أقسى الوحدة! عبّاس! أنتَ لا تعي هذا. لأنّك تمرّ عبر وجوهٍ لا تعرفها في الزحام، وروائحَ محروقةٍ تشمّها من بعيد، ومبانٍ وقصور، وشوارع ضيّقة تضيعُ فيها وسط الليل، وسيّارات تكاد تدهسك، والهواء يطير، وأنت تُحلّق، وأنت قاتل. إنّك تعلم هذا، لقد قتلتها، لقد قتلت ناديا جدّتك، تلك التي أحبّتك حبًّا كبيرًا. لكنّك تضيع في الزحام بينما تسمع concerto no.2 in G minor، من مقطوعة فيفالدي، تختفي وتتلاشى، ثمّ تعاود الظهور. ما أقسى الوحدة! عبّاس، اسمع، أنا صديقك بيبو. لا أريد أن أقتلك بل أريد ترويضك، أريد حبسك داخل قفص ريثما تكبر. إنّك كلب أكيتا قويّ وماهر ولا تخاف، لأنّك لا تعرف معنى القهر، ولا تعرف مراقبة السفن وهي تبتعد عن الميناء في قاضي كوي، إنّك تحبّ قاضي كوي كثيرًا وتركب الترام أولًا، ثمّ تغطس في الماء، وتتعرّى أمام الشمس، وتمشي عاريًا وسط الناس كلّها، وترى سفنًا في طريقها نحو بيشكتاش وأخرى نحو كراكوي. لكنّك تفضّل الجلوس في قاضي كوي، وتعلم أنّ ناديا في حيفا لا في إسطنبول، لكنّك تلحق أبي. إنّه يحبّ إسطنبول كثيرًا، ويقرأ الألعاب الخطرة، وأنتَ يا عبّاس، حزين، مثل حيفا. لا

تحبّ سوى حيفا. أنت كلبٌ مخلصٌ جدًّا، تحبّ وطنك كثيرًا. الوحدة قاسيةٌ جدًّا، وبينما تترجّل من الترام وترى الناس يدًا بيد، وأنتَ وحيدٌ يا عبّاس، تقرأ بعض أشعار ناظم حكمت، وترى الناس من حولك، تكاد تختنق، وتدور الأرض في رأسك وتشعر بأنّك تقع، وأنت تفشل في الوقوف، وتشعر بأنّك لن تصمد كثيرًا على الأرض، وأنتَ تغوص في الوحل وتخاف أن تلطّخ اسمك وسمعتك في الطين. وتحلم بأن تدخل مدرسة عسكرية، كتلك التي في مدينة ليما. مدرسة عسكرية ذات قوانين صارمة ومستبدّة، بينما تركض وتحلم أنّك ضابطٌ كبيرٌ وأنت تسمع concerto no.4 in F minor من مقطوعة فيفالدي. الوحدة قاسية جدًّا خصوصًا في تلك البلاد. تدخل السفينة وحدك، وتخرج وحدك. ولا أحد ينتظرك في المحطّة. تغادر، وتبقى تغادر، لأنّك لا تعرف سوى أن تغادر، وتفكّر في ناديا. تظنّ أنّ ناديا وحدها تنتظرك على الشاطئ. وحدها الليلة بكلّ جسمها المتكوّر على ذاته. وكلّ شيء يفقد ذاته، وأنت لا تعرف سوى البكاء. الوحدة قاسية، الوحدة قاتلة، وأنت لست إلّا كلبًا يا عبّاس. لا تعرف سوى النباح. عبّاس، عبّاس، أرجوك، أنا لا أريد أن أقتلك كما قلت لك سابقًا، أنا أحبّك وأريد أن أحميك. الأيّام التي بيننا لن تعود، كلّ شيء يذهب لا يعود. وأنتَ كلبٌ ماهر، تعرف ما أقول جيّدًا. كلّ هذا سيبقى سرًّا. سرّ لن يعرفه أحد! أنت تحاول أن تسمع كلماتي، لكنّك وحيد في هذا الزحام. وحيدٌ في قاضي كوي، ووحيدًا ستموت. ما رأيك أن نطوف العالم معًا؟ عبّاس، عبّاس، اسمعني، عبّاس، عبّاس، عبّاس، أقول لك عبّاس... أنتَ كلبٌ بغيض. اسمع، عبّاس، أين تذهب؟ أنا بيبو صديقك. ضعيف الحيلة، بالكاد أقف على قدميّ وأمّي ناديا تموت. أنت قد قتلتها، لا اليهود، أنت تطوف بيتنا كلّ ليلة، وتلتهم فرج ماما ناديا. ماما ناديا تحبّك، لكنّك حيوان، لكنّك طيز. أنت لست إلّا طيزًا. إنّي أستعمل

كلمتك المفضّلة. أقول لكَ طيز. أنا أنساك. أنتَ لا تعنيني، أنتَ مثل البعبع. أنتَ تقتل ماما ناديا، ماما ناديا تموت، أنتَ تقتلها. إنّها ماما ناديا ميتة. وأنت بين قبضة اليهود تحاول الفرار وتخترع قصصًا لا وجود لها، وتقول إنّ ماما ناديا هي جدّتك الحبيبة. أنت من قتلها، أنتَ قاتل. عبّاس، كلّ شيءٍ يبدأ من الذاكرة وينتهي بالموت، وماما ناديا تسكن الريح، وأنتَ تطوف البيت كلّه، وتختفي في الزحام. لا ترحل، لا ترحل، أنت لا ترحل، تبقى في البيت، تعيش في بيتنا. تضع البيض في فناء الدار، أنت كلب أكيتا ماهر يبيض، وتضع بيضك في ديارنا. صغارك يعيشون في البيت معنا. صغارك يكبرون ويعيشون معنا في الدار. تلك الدار التي عشت فيها طيلة حياتك. إنّك تختفي بينما تسمع أبواق السيّارات. يقتلك صوت الأبواق، وأنتَ تمشي في شارع الاستقلال بينما تبتلع الناس أجسادها، بينما أنت تضيع. تضيع وتنادي؛ أيّتها الريح، خذيني نحوك. والريح تغدر بك، تطعنك، وأنت عبّاس! «آه يا عبّاس، إنّك تتلاشى، بينما تحلم برجلٍ قويّ يضع قضيبه داخلك. عبّاس، اسمع، عبّاس، أنتَ لا تسمع، عبّاس، أنت تموت. وبينما تحبّ الرجال، تحبّ النساء أيضًا. ولا تقول سوى أنّك تريد أن تحبّها، وجهها ناعم، لكنّها لا تحبّك. أنت لست رجلًا حقيقيًا، والفتيات يحببن الرجل الحقيقي، رجل ذكوري جدًّا ويفضّلن الذكورية السامّة مهما قلن إنّهنّ نسويّات. وأنت نسوي ضعيف. ضعيف الإيمان، لا تملك شاربًا ثخينًا ولا قضيبًا كبيرًا. ولا تفتح رجلك عند الجلوس كما يفعل الرجال، وشعر عانتك ضحل. وشعر صدرك ضعيف، ولحيتك غبيّة، حمقاء، بالكاد تبزغ، وطولك! كم أنت قصير القامة وتقيس طولك بالفراسخ. وعرض كتفيك محدود، ووجهك شاحب، ولون جسدك وردي مثل النساء. عبّاس، أنت مخنّث لعين. عبّاس، لن تحبّك أيّ امرأةٍ ما دمتَ ضعيف الإيمان. لا تحبّ نفسك، لا تحبّ جسدك.

وتبقى تحتقر ذاتك طوال الوقت. كم من الوقت بقي لك كي تعيش. كيف تعيش؟ كيف تموت وأنت عبّاس، أخي الصغير الذي طالما أحببت، قل لي؟ كيف هي الحياة هناك، في العالم الآخر؟ كيف يعاملك اليهود؟ هل تدافع عن فلسطين؟ هل تحبّ الديار؟ هل تعني لك شيئًا تلك الديار التي تطوفها بينما نكون نيامًا؟ عبّاس، أنت تحبّ الرجال الرخيصين فكريًا، وتحبّ كلّ رجال الغراند بازار. لقد رأيتك تمصّ له بينما يشلح بلوزته، وتضع كلّ قضيبه في فمك. لقد قال لك إنّه من مدينة فان، وإنّه كردي، وإنّ الكرد لا مثيل لهم في الفِراش. لكنّك لا تفكّر فيّ أنا، إنّك لا تحبّ سوى جسدي، لكنّ هذا سرٌّ بيننا. ماذا؟ كيف؟ أنت مجنون! لا تخاف من شيء. ينكحك الكردي من دون واقٍ. قال لك إنّ اسمه رمضان. ولقد وُلِدَ في شهر رمضان. وتذهب كلّ ليلة سبت نحو الغراند بازار كي تواعد رمضان، وتلحس شعر إبطه. إنّه كثيف الشعر مثل القرد، لكنّك تحبّه. اسمع عبّاس! أنا لا أفكّر إلّا فيك. لكنّي لا أستطيع أن أكون معك. أنا أفشل في أن أحبّك. لا أستطيع، صدّقني، هذا كثيرٌ عليّ، اسمع عبّاس، كم من الوقت قد بقي؟ قد أحبّك في تلك الحياة الأخرى، لكن هنا كلّ شيء محال. لا أستطيع أن أحبّك هنا، أتمنّى أنّك تفهمني. عبّاس، لقد قتلتَ ماما ناديا أغلى ما أملك. لقد قضيت علينا. عبّاس، أنت تعلم أنّ كلّ قضيّة لها أبعاد ومآخذ مختلفة. فكلّ النسويّات يرين أنّ العالم ضدّهنّ، وكلّ المثليين يعتقدون بأنّ العالم بأسره يعاني من رهاب المثلية. وكلّ يهودي يفكّر بأنّ شعوب الأرض كلّها لاسامية. عبّاس، أنا أعلم أنّ هذا سرّ. هشّ هشّ هشّ! إنّها لعبة خطرة، وأنت تحبّ أن تلعب الألعاب الخطرة. إنّ قدرتك على فهم هذا العالم ضحلة جدًا، والعالم بدوره لا يفهمك. أوه، عبّاس. أنتَ تعتقد بأنّ هذا العالم الكبير يستعصي على فهمك. وتعتقد أنّ العالم كلّه يمارس عليك بطريركيته. عبّاس، دعنا نتفق على

أنّك أحلى شيء في نظري، دعنا نتّفق، أنّي أحببتك كثيرًا! دعنا نتّفق على أنّ الخليقة كلّها لم تكن إلّا عملًا من الخرف. دعنا نتّفق على أننّا رفاق إلى الأبد. أنتَ لا تحبّني كما أحبّك، علاقتي بك شائكة لكنّها ليست محرّمة، وبينما تدور في الديار، وتتلاشى في الزحام، قتلتها يا عبّاس. قتلت ماما ناديا، لكنّي لا أريد موتك. حرامٌ أن تموت، لأنّك في عينيّ لأبهى من الغنى، ولأنّك في قلبي لأحلى من النصر، ولأنّك تجول جسدي بينما أكون نائمًا. عبّاس، يا فؤادي، يا حبيبي! عبّاس، إنّي أغفر لك كلّ خطاياك.

CANTO VII: Let’s play Oslo again

إنّي لم أقتل ناديا، لقد قتلت امرأة أخرى لا أعرفها تطوف في البيت كلّ ليلة! لكنّها ليست ناديا، لا، لا يمكنني أن أقتل جدّتي ناديا! ناديا حبيبتي! كيف أقتلها؟ لقد قتلها اليهود! بيبو رأى هذا! هذا سرّ! سرٌّ كبير، سرٌّ خطير، لقد وعدني بيبو ألّا يحكي سرّنا! لكنّ بيبو منيك، حقير! إنّها لعبة خطرة! لا أستطيع أن ألعبها! بيبو منيوك! بيبو! لماذا تفشي أسرارنا! بيبو أنا لا أحبّ الألعاب الخطرة! ويقول الجنديّ... **هيّا نلعب أوسلو من جديد، ما رأيك؟** أنت تطلب منّي أن ألعب أوسلو من جديد! أنت مجنون، أنت لست إلّا واحدًا حقيرًا، أتعلم هذا؟ وتقول لي ما المشكلة في أن نلعب أوسلو مجدّدًا! أنت تطلب منّي الاعتراف! أنا لن أعترف بروايتك، ولا أعرف بلدًا اسمه أورشليم! ولا أستطيع أن أقرّ بأنّ هذه البلاد بلادكم أو بلاد الله، ألا تسمع أنّ نيتشه قتل الله! أمّا من وافق على أوسلو فقد قتل فلسطين! وأنا أموت، وأنا وحيد، وأنت تحتاج إلى أوسلو لأنّها حجّتك أمام العالم كلّه. وتصرّ على أن تقول إنّ أوسلو سلامٌ فعليٌ وحقيقي، ولا تعلم أنّك طعنت هذا السلام، وقتلت أرضي. اسمع، اسألني عن عائلتي، ولا تطلب منّي أن نلعب أوسلو من جديد!

ذلك لأنّنا مع قدوم الفجر نكون قد انتهينا، وإن لم تنتهِ حكايتي كلّها أثناء حلول الفجر، فسأموت! جميعًا، سنموت! اسألني، هيّا، **ماذا عن هامو، ماذا عن أسو؟** أسو مُعاقٌ منذ الولادة، وهامو معاقةٌ فكريًّا، هذا أنظف اختصار، **أخبرنا لماذا تعيش معهم وأنت تكرههم هذا الكره،** أنا لا أكره عائلتي، من قال لك إنّني أكره عائلتي، على الرغم من كلّ شيء عائلتي تبقى عائلتي، أنقذتني دائمًا، وأنا أحاول إنقاذها بدوري، الحقيقة القاسية، إنّنا جميعًا يكره بعضنا بعضًا، لكنّي أموت بينما أسمع بسيل عالقة في دهليز الأذن؛ ستفشلُ في إنقاذنا، أعطهم قصّة يرضون بها، ودعْهم يُطلقونا أحرارًا...! هيّا أنت مُغفَّلٌ! يجب أن تلعب أوسلو مجدّدًا تقول، أنا لستُ مغفّلًا، أنتِ لا تفقهين شيئًا، لقد قتلوا ناديا، ألا ترين ناديا، كيف قتلوها؟ أجيبيني، بسيل، كيف قتلوا ناديا؟ دعينا نفحص نبضاتِ قلبها، لقد ماتت، ماتت... محالٌ الآن، إنّها ميتة، ألا ترين هذا، أنا لا أريد العيش دون ناديا، وأنت تطلبين أن ألعب أوسلو مجدّدًا! **«أخبرنا عن عيّوش، ماذا تعرف عن عيّوش؟!** أعلم أنّني أحبّ عيّوش كثيرًا، وأنّني أشفق عليها. إنّ عيّوش زهرة من زهور البيت! – يستأنف – **لغةٌ مستهلكة ماذا عن فريدو؟** آه فريدو، لقد فرّ من البلاد وتزوّج إيطالية تعيش في ألمانيا، **هل زرتهم؟** لا لم أفعل، يسأل مجدّدًا، **لماذا تحبّ أميرة كثيرًا؟ أميرة أخت المالك أليس كذلك؟ أو لا؟ أخبرنا عن عيّوش، عيّوش.** وتسألون مجدّدًا عن عيّوش، لقد ضحّت كثيرًا من أجلنا، وتركت مقعدها الجامعيّ كي تعمل وتُعطي المال لسامو، وسامو بدوره حشّاش، يحبّ المخدّرات، لقد سُجن، وأُطلِق سراحه، وذهب إلى السويد وهو في عزّ شبابه، صحيح... يجب أن أحكي لكم رحلته إلى ستوكهولم، كيف فرّ من الشرطة وبحوزته عشرون كيلوغرامًا من الكوكايين، إنّها قصّةٌ طويلةٌ محالٌ أن أحكيها الآن، قد ترك سامو المخدّرات وتعافى منها، وأراه هنا حزينًا، يقطر حزنًا،

يلعب بقدميه، يلحسُ الحائط، لقد جُنَّ! أصبح مصروعًا وبلغمه عالق في الحنجرة، **ماذا عن بيبو! أم تفضّل أن تلعب أوسلو من جديد!** أنت خراء تستمرّ بقول أوسلو! حسنًا، بيبو، ماذا أخبركم عنه؟ إنّه طيّب القلب مثل جدّي، كلّنا مثل جدّي أتعلم هذا، يُطلق الجندي قهقهةً ساخرة، ويقول؛ **كلّكم مثل جدّكم وكلّكم مثل ناديا أليس كذلك؟ وتخافون من مواجهة أنفسكم، حسنًا، حسنًا لا تتشتّتْ أكثر، لقد سمحنا لك في البداية بأن تقول كلّ شيءٍ دون ترتيب، أرجوك ركّزْ. استيقظْ يا طيز. أجبْنا عن بيبو، ماذا يفعل بيبو في أيّامه العادية؟** يقول لي بيبو، إنّني باردٌ جنسيًّا، وإنّني لا أشعر بشيءٍ تجاه النساء، بينما أشعر بأنّه زير نساءٍ كبيرٌ ومُحترف، يحبّ النساء، ويحبّ الروسيات، هو ابن جدّي، هو يشبه جدّي، هو يحبّ الرومانيات والروسيات، عائلةٌ مريضة باللون الأشقر والعيون الملوّنة، مسكينٌ بيبو، لقد خدعوه! فقد قدرته على النطق لمدّة عام، لقد وضعوا له حبّة إكستا داخل زجاجة البيرة. أتعلم؟ يقول سامو إنّه هو من قتل ناديا، وتلومُ أمل نفسها، وهامو تبكي وبيبو ابنها الصغير الحبيب، وأسو يقول إنّ زوجته الآن سعيدة، لقد تخلّصت من ناديا. كيف تجرؤ؟ حقيرة، وسخة، تقول ناديا إنّنا أخذنا زوجة أسو من الشارع، كانت فقيرة، رماها زوجها السابق في الشارع وأشفقنا عليها، وأنا أموت، إنّي فعلًا أموت، كانت ناديا تقول لي كلّ الأسرار، وتعلم أنّ عائلتها قذرة، وأنّها أنجبت أولادًا عاقّين، لكنّها أطعمتهم ودافعت عنهم بحجّة أنّ المرأة بعد موت زوجها لا تملك سوى أولادها وأحفادها، تعلم أنّهم يكرهونها، ويريدون التّخلّصَ منها في أسرع وقت، وتعلم أنّ العائلةَ دونها ستنهار، ستنهار، وتعلم أنّ امرأة سامو القذرة تريدها أن تموت، وتعلم أنّ امرأة أسو الحقيرة تريدها أن تموت، لقد سمعتُهم بأذني هذه التي ستأكلها الديدان، سمعتهم يقولون ويدعون لله تعالى، أن يأخذها، لقد

سمعتهم... إنّهم منايك، ألا تعتقدُ هذا؟ **ماذا؟ منايك؟ أنت تشتم عائلتك؟ أتسمع قولك؟ وتقول إنّك تحبّ عائلتك، وتقول إنّك تحبّ فلسطين، وجدّك ذهب للبحث عن الخائن الهارب نحو يوغوسلافيا قبل انهيارها، وتقول إنّ ناديا درست تاريخ فلسطين كلّه، وإنّها تعرف جميع أنواع الحمضيات، وعدد الحروب التي خاضتها فلسطين عبر العصور، وإنّ الرومان سفكوا بيت المقدس، واليهود أسقطوا حيفا. وترفض أن تلعب معنا أوسلو من جديد! اسمع، إنّها لعبة لطيفة! آخذ منك الاعتراف وتنتهي لعبتنا، ما رأيك؟** أتطلب منّي أن ألعب معك أوسلو مجدّدًا كي تخدعني من جديد! على جُثّتي! أتسمع؟ أضعك على قضيبي! وأفكّر مجددًا في اليوم الذي سقطت فيه حيفا في نيسان. وأواجه نفسي؛ أنت لا تعلم شيئًا عن فلسطين، تقول إنّك فلسطيني، ألا تخجل من نفسك، تقول إنّك تعرف فلسطين من شمالها حتى جنوبها، من صفد حتّى إيلات، ولا تعلم كم تبلغ مساحة الجليل، قل لي الآن ماذا تمثّل لك جبال يهوذا والسامرة؟ ما يعني لك شارع العتسمئوت، أو الاستقلال كما يسمّونه، ماذا تعني لك الطحينة عندما تضعها على رغيف الفلافل، وتلتهمها مثل المجنون. أتعلم ماذا تعني كلمة فجعان؟ أنت فجعان. الآن كيف ماتت ناديا؟ لقد بقي أمامكَ خمس صفحات فقط، وقلم الحبر على وشك النفاد، لماذا تكتب كلّ هذا إذن؟ كي تعلم من قتل ناديا! أنا لا أعلم كيف ماتت ناديا، لكنّي أعلم أنّها ميتة الآن، وأعلم أنّها تسمعني، وأعلم أنّها تراني، وأنا أموت، وأرى يدها على كتفي وأرى شفتيها، وأرى ثيابها الممزّقة وأسمع شهقتها، وأسمع جدّي يُدغدغ خاصرتها، وأنا أموت، وأسمع صوتها يخترق جسدي، يجلس داخلي، يستولي على جسدي، أشعر بها كما لو أنّها سكّين نصلُه حادّ، أشعر بها كما لو أنّها خنجرٌ في قلبي، أشعر بها كما هي، حيّة، شهيّة، طريّة، جلدُها طريّ، شفتاها مثل التوت، ورائحة

الحمّص تفوحُ منها، ورائحة الموز تفوحُ من فرجها، تفركُ عانتها، أرها تستحمّ، تفرك نهديها، أرى صدرها الكبير، أحبّ صدرها، شكله، صورته الدائريّة، شكل حمّالة صدرِها، ترتدي كلسونها، ترتدي ثيابها المهترئة، أراها تضع المسكارا، وبعضَ المكياج على وجهها، وتتعطّر بعطر دولتشي غابانا رخيص، مقرف، وأرى مطبخنا، الأوانـي، الكؤوس المزخرفة، الشراشف المنقوشة، كم تزنُ ناديا؟ إنّها تقف هناك، أمام المغسلة، وتراها تغسل الأطباق، قصيرة القامة، صهباء، تحاول أن تُخفي الشّيْب، إنّها تشيبُ، ونقول بلغتنا الدارجة «لقد شيّبوها»، آه لقد شيّبَنا اليهود تقول ناديا، وتقرأ كلّ يومٍ لنا شيئًا من ألف ليلة وليلة، وشيئًا من تاريخ فلسطين. كانت تعلم أنّها ستموت، لكنّها كانت تعلم أيضًا، أنّ فلسطين لن تموت، لن تموت ما دامت تحكي لنا حكايات جدّتها عن فلسطين أثناء الانتداب البريطاني والعثماني، وتقول إنّها تحبّ كثيرًا رواية الألعاب الخطِرة، لقد اشتراها جدّي لها من إسطنبول، وكان جدّي ناطقًا للّغة التركية، تقول وتعترف: لكنّي تزوّجتُ جدّك لأنّه قرأ لي رواية الألعاب الخطرة، وقرأ لها أيضًا «توتونامايىنلار» كما أنّها تذكر نرمين وتورغوت جيّدًا كما تذكر خراب أوسلو، تلك الوثيقة التي هزمتنا! وأذكرها تخبرني بأنّ الجامعة هي مستقبلي، وأنّ الفلسطينيَّ لا يملك سوى شهادته الجامعية، أقول لها، ليسانس أدب فرنسي، وتقول لي طبيبُ أطفال أو طبيبُ أسنان فقط لا غير أو هندسة، أقول لها، إنّني أحبّ الفنّ، وأشعر بأنّي فنّان، تقول: ضع هذا الفنّ في مؤخرتك الآن، كانت تقرأُ الكثير من الكتب، وتحبّ الأدب والقصص وحكايات ما قبل النوم، لكنّها كانت تعلم أنّ الأدب لن يطعمني الخبز، وكان مصيري أن أدرسَ الهندسة مثل باقي الزملاء، لم تكن على دراية بأنّ الأدب لا يطعم الخبز أساسًا، بل يهب الحياة. قالت لي كلّ هذا قبل موت جدّي بأيّام، بداية الألفية، بعد أوسلو، كانت ناديا لا تزال في عزّ شبابها، تذهب كلّ

فجرٍ نحو العمل، كانت تشعرُ بأنّ جدّي سيموت قريبًا، ففي آخر حياته أفرطَ في تعاطي المخدّرات وشرب الخمر، كانت تشعرُ به بعيدًا بينما بنطاله الأصفر يلطّخ الأرض كالعادة، كانت تراه مثل ضوءٍ خافت، مثل شيءٍ يبتعد، شيءٍ ينتحب، شيءٍ يطيرُ في الفضاء، شيءٍ يبكي، حزينًا، يئنّ، تتذكّره وهو مضطَجعٌ يقرأ صحيفة هآرتس، تتذكّر غليونه، لا، إنّه سيجار، لا إنّه حشّاش، إنّها تشعرُ بالخوف، إنّها وحيدة، كيف سترعى أطفالها، هي تعلم أنّهم ليسوا بالأطفال، لكنّ قلبَ الأمّ، تقول ناديا، إنّ قلب الأمّ لا يشبهُ أيّ قلب، لقد مات جدّي «أحد تلك الصباحات الحزينة، رأيتُه نائمًا، مثل الملاك، لونه يميلُ إلى اللون الأزرق، لقد تُوفّيَ إثر جُرعةٍ زائدةٍ من الكوكايين، لقد طار عند الله، وبينما يطير، أسمعُهم يصيحون، لكنّ ناديا الفاعور لا تبكي، لقد قالت لي إنّها ليست حزينة، لقد ذهب هو وخياناتُه وتعاطيه إلى القبر، لن تعانيَ مُجدّدًا، لن يضربها. لكنّها في أعماقها كانت تعلمُ أنّها تشتاق إليه، تشعر به جيّدًا، تشعر بنبضاتِ قلبه فوق صدرِها، تشعر بكفِّ يده حين يلمس خدّيها، ويقول لها إنّها تشبهُ اللوز، ما أجمل هذا! مثل اللوز، ناصعة البياض مثل اللوز، طاهرة، شريفة، تحبّ الله، تخافُ الله، في يدها مسبَحتُها، وتقرأ القرآن الكريم دومًا، وأراهم يغفون تحت اللحاف، يغطّون وجوههم باللحاف، أسمعهم يبكون، القذى يكسو عيونهم، لقد مات جدّي، وقريبًا ستموت ناديا، إنّها ميتة يصرخ الجنديّ، وأقول له إنّ ناديا لا تموت وهو يصرخ، ويقول **هل بكت ناديا عندما مات جدّك؟** ناديا لم تذرف دمعةً واحدة، وشعرت بالسعادة، كانت سعيدة. عندما مات جدّي سألتها؛ لماذا تشعرين بالفرح؟ ناديا، هيّا قولي لنا! إنّها تذكرُ هذا جيّدًا، حين كانت ضفائر شعرها طويلة، خلّابة، شقراء، لامعة، فكّت ضفائرها، وانتظرته باكية، كان يشعر دائمًا بالغيرة منها وعليها، كلّ رجال الحيّ يريدونها في الفراش، إنّها بارعة، بارعة في وضعيّة الشلّال،

وضعيّة القطّة، وضعية الحَلْق العميق، آه ما أجملها! يقول الجنديّ: **ماذا تعني وضعية الحَلْق العميق؟** القضيب يدخل في عُمقِ الحَلْق ويعلقُ هناك لا يخرج، ناديا لا تفضّل وضعية التسلُّق البطيء، حسنًا يقول الجنديّ: **قل ما هي وضعيات ناديا المفضّلة؟** تحبّ ناديا قفزة الضفدعة، الملعقة والحصان الهزّاز، أحيانًا وضعية الدوغي أو الكلب، تحبّ أيضًا وضعية راعية البقر وزهرة اللوتس، يقول الجندي إنّ عقله قد توقّف، يطلب منّي أن أشرح له الوضعيّات، آه ما أجمل وضعية الملاكِ المُلَتوي، إنّها مُلتفّةٌ بين أحضانه، خجولة، تحبّه كثيرًا، وأقول، نعم نعم وضعية ناديا المفضّلة هي وضعيةُ الملاكِ المُلَتَوي. لقد أخذها من رأسها وأمسك المقصّ بيده، وقصّ شعرها الطويل، لقد خرطَ شعرها كما يخرطون الأشجار، لقد بكيتُ كثيرًا يومها، لقد قصّ شعرها، شعرَها الطويل الأشقر، تراه على الأرض، خصلاتها على الأرض، يضعُ شعرها في فمها، يقول لها إنّها ملكه وحدَه الآن، نعم جدّي فعل هذا. نعم جدّي حقير، لقد شعرت ناديا بالحُرقة، بالشوق، لقد بكت، نبحت، صهلت، نعقت، لقد سمعتُ نعيقها، سمعت نحيبها، ناديا تبكي، وهي ترى شعرها مقصوصًا على الأرض، وتشعر بأنّها تنهار، تنهارُ في وضحِ النهار، وترى شكلَ رأسها، وتطلب منه أنْ يضع لها مقطوعةَ لولي. **من هو لولي؟** أقول له إنّه جاهل فمَنْ لا يعرف لولي، لا يعيش، ويقول كيف تعرف لولي؟ وتقول ناديا إنّ صديقاتِها درسْنَ في مدارس اللاتين في القدس معها، وأخرياتٍ قد درسنَ في مدارس الأرمن، وأسأل الجنديّ: أتعرف صراع الأقباط والأحباش؟ كيف أتى الأحباش نحو القدس؟ كم مكتبةً عامّةً في القدس؟ تقول ناديا إنّ لولي درس في المدرسة الوطنية الأرثوذكسية، وإنّها تعلّمت التراتيل هناك وتعرّفت إليه هناك، لكنْ هناك قصّة أخرى حول لولي، تقول ناديا إنّها عاشت أوّل أيّامها في القدس، وإنّ لولي هو صديقها المفضّل، تذهب كلّ يومٍ كي تراه، يكبُرها

بعامين أو ثلاثة، هي تدرس في مدرسة اللاتين وهو يدرس في الوطنية الأرثوذكسية، وتراه آتيًا وبيده شيءٌ يشبهُ اللافانتا أو اللوتس، وتذكره جيّدًا، وترى الحبّ الأول مثل وصمة العار، ولماذا العار، لأنّ العار لا ينفكّ عن كاهل الإنسان أبدًا، **إنّها أحبّت جدّك، لكن قبل هذا كانت حاملًا، وقبلها كانت تُحبّ لولي... يا لها من عاهرة كيف لقلبِها أن يتّسع لكلّ هؤلاء؟ آه إنّ قلبها كبير ومباح.** لكنّها لا تذكر سوى لولي! فوقها، يحبّها، إنّها خصبة، ليست عاهرة، تريد أن تحبّ، تريد أن تكون محبوبة، تريد أن تعيش داخل مقطوعات لولي هي وخليلها لولي، ناديا، أتسمعيننا؟ ويرى بيبو جثّتها على الطريق، يرى كاحلها، عنقها، رأسها المفلوخ إلى نصفين، يراها ميتةً، يرى الدماء، مرميّةً أمامه، ناصعة البياض، ولقد وضع الجنود أشلاءها في كيس أسود، كيف له أن يقطَع يديها ثمّ يضع يديها داخل كيسٍ من البلاستيك؟! لقد وضع رأسها، لقد وضع مخّها، ورفع كبدها عن الأرض، إنّه يسلّمُنا ناديا ميتةً، مشوَّهةً، يسلّمُنا رأسَها، نراها ميتةً، نرى كبدها، لقد مضغ كبدها ووضعه لنا في الكيس، لقد قتلوها، تنبح عيّوش، لقد ماتت! تقول أمل، لقد مضغ كبدها، لقد أكلها، لقد قتلها، هذا المجرم، لقد قذف في فرجها ثمّ قتلها، أقول للجنديّ: اغتصبتم وقتلتُم نساء مجد الكروم ودير ياسين بالطريقة ذاتها، لقد أتى الجنديّ، لقد أتوا، كنتُ أراهم قادمين من النافذة، يخترقون النافذة، سيكسرون النافذة، أقول للجنديّ، كم فلسطينيًّا قتلتم؟ يقول الجنديّ إنّه لا يعرف، كم فلسطينيًّا تمّ تهجيرُه وتمّ تدميرُ بيته، يقول: إنّه لا يعرف... لكنّ ناديا قد أتت مقطَّعةً، مقصوصة، أتت أجزاءً، كلّ جزءٍ مرميٌّ في جهة، أتتْ دون قلب، لقد وقعَ قلبُها في الشارع، لقد بكينا... رأينا ناديا داخل الكيس. فتحت عيّوش الكيس، اقتربتُ أنا من الكيس ورأيتُ ناديا...! لماذا قتلوها؟ لا يهمّ فهم يقتلون دائمًا!! ودمُ ناديا ليس أغلى من أيِّ دمٍ فلسطيني آخر

أهرقه اليهود، ولماذا كلمة شهيد تُسبّب لهم صداعًا مُزمنًا؟ ولماذا كلّ شهيد تجعلونه إرهابيًّا؟ **الباقي ألفُ كلمة!** سأسرد لكَ حكايةً طويلةً من دير اللاتين أو من أحباش القدس. **الوقت يُداهمك، والفجر على وشكِ السقوط.** والحقيقة طويلة، طويلةٌ جدًا، أأبدأ من جديد، جاهز؟ أتلعبُ أوسلو من جديد؟! لا لن ألعبَ أوسلو من جديد، نيتشه قتل الله، سأُعلن مقتل الله الذي وعدكم بفلسطين أيضًا!

CANTO VIII: Time to kill God like Nietzsche

أنا أهذي، وقد أكون مجنونًا، لكن قبل أن أعلن مقتل الله مثلما أعلنه نيتشه، أخبريني، يا طفلتي المدلّلة، فأنا أريد أن أعرف. وأنت لا تُفصحين عن كلّ شيء، إنّك خبيثة؛ تحملين مفاجآتٍ لا نعلمها. لكنّنا نتعادل؛ أنا أعلم عنك أشياء لا تعلمينها، وأنتِ تعلمين عن نفسك أشياء لا نعلمها، إذا تألّمت معدتُك وأُصبْتِ بالإسهال فلن أعرف شعورك، لأنّ إسهالك لا يشبه الإسهال الذي أشعر به، وإنْ أتتك الدورة الشهرية فلن أشعر بألمها جيّدًا، ليس لأنّي رجلٌ أو امرأة، بل لأنّي أعيش متنقّلًا بينهما، لكنّي أستطيعُ أن أرى تمزّق أحشائك وصرخاتِك في الليل. تنهضين وتفتحين معلّباتٍ، لكنّها معلّباتٌ مختلفة عن التي التهمتِها البارحة، لقد كَسرتِ النافذة وخرجتِ مسرعةً قبل أن يأتي اليهود. فعلًا قد انبَلَجَ الصُّبْحُ وَعَمَّ ضَوْؤُهُ السُّهولَ وغادرَ الفجرُ وسُحقَ الليلُ، وهي تتمدّد على الشاطئ مثل الحورية، اسمها ناديا الفاعور، وترفض أوسلو، لا من منطلقٍ عدوانيّ، بل لأنّها تعلم بأنّ أوسلو لم تكن سوى كذبة. لكنّ رأسها سمكة وذيلها أرجل، تمشي على الشاطئ برأس سمكة وتحاول أن تجد الأمير البعيد. النافذة تقرقعُ والهواءُ يدخل بقوّةٍ في جسدك، ويجعلك تشعرين بالغثيان وأنت تفتحين المعلّبات وتأكلينها. إنّه عملٌ عظيم، إنّك حوريةٌ برأس سمكة، وأرجل طبيعية.

يدخلُ الصباح بعد أن يخرج المساء، إنّهما يعملان بالتناوُب، إنّهما رفيقان. وأنتِ كعادتك، بهيّةٌ، مُشرقةٌ، تتألّقين، اسمك ناديا، وتحبّين القصص كثيرًا، بعيدًا عن الألعاب الخطرة، تُحبّين بروست، وعقلُك لا يفكّر سوى في جيلبرت، الآنسة التي تقضي عصرونيّاتها في شارع الشانزيليزيه في باريس، وتتكبّر على بروست ويراها من بعيد، ويخاف أن يحدّثها؛ يخشى أن تصدَّه أو ترفضَه. وعقلُك لا يفكّر سوى في جدّي! لكنّ جدّي مسكينٌ، يبقى منتشيًا، ولا ينساك، يردّد كلماتِ الحبّ دون توقُّف، وأنت تنهضين، هو يضعُ لك شوبان لا فيفالدي، وصدرُك يفزُّ من مكانه، وتقرّرينُ أن تُعدّي له فنجانًا ساخنًا من القهوة. إنّك لا تشبهين أحدًا، يُغازلك مرميّةً بين يديه، وتقولين له ماذا سنأكل اليوم؟ يقول، لا شيء نأكله، وأنتِ مسرورة. وحين يجنُّ الليل، تصبحين بائعة هوى، ويحصل أحيانًا أن تستسلمي للأمر الواقع، وتخضعي لأشياءَ غيرِ مقتنعةٍ بها لكنّك تفعلينها، ولهذا تشعرين بأنّ جسدك صار ملكًا له، وأنّ الصباح لا يحلُّ إلّا بوجوده إلى جانبك، وبنطاله الأصفر يشقّ طريقه نحو يثرب، يراقبك كيف ترتعشين، ويهمس لك بأنّك أجمل ناديا دخلت حياته. وأسمع جدّي يقول لها إنّها ملاكٌ، وإنّها مثلُ الريح، وإنّها تُشبهه كثيرًا، وهي فوقه، وهو تحتها، يشعر بها، وأُفكّر وأقول للجنديّ: هل تملك جدّةً مثل ناديا؟ سريعة الانفعال، سريعة الغضب، تحبّ الشتائم رغم حلاوتها وطراوةِ جسدها، هل تملك جدّةً قصيرة، وصهباء بعينين مُلوّنتين تُطلقُ كلّ حقدها عليك لحظةَ غضبها لكنّها مثل السكّر، ومثل النار. يقول لها جدّي؛ أحبّك، أنا معبودكِ، أحبّك مثل النار، أحبّك مثل الشواء، يفضّل أن يقول لها مثل الشوي لا الشواء، أحبّك مثل الله، أنتِ مثل النار في جسدي، وتراه غارقًا فيها، وتراه حبيسًا داخل حكايتها، وتقول إنّه مثيرٌ للسخرية، لكنّه يحبّها مثل النار، وتقول لي ناديا كلّ ليلةٍ، إنّه يحبّها مثل النار، يشهقُ الجنديّ، وأرى سامو يتمزّق، وعيّوش

بائسة، وأمل تنهارُ تُريدُ الخروج، وبسيل تهمسُ، هيّا، أخبرهم أنّك إسرائيليّ، وأنّك تريد أن تلعب أوسلو من جديد، أخبرهم أنّك لا تبالي بمجزرة دير ياسين، وأنّ تاريخ القدس لا يعنيك، اعترفْ بمملكة سليمان، وأنقذْنا من هذه الجحيم! لكنّهم قتلوا ناديا، وبسيل لا تفهم أنّهم قتلوها، بل تقول إنّ ناديا خائنةٌ تقرأ ألف ليلة وليلة والألعاب الخطرة. لكنّي في آخرُ الليل كنتُ أتسلّلُ ببطءٍ من النافذة نحو ناديا. من غير أن تعي هذا، أتحسَّسها وأقبّلها، وأرى صدرها وفرجها، لكنّها نائمة تهمس لي؛ أتعلمُ ما الأجمل من قراءةِ كتاب؟ قراءةُ الكتاب ذاته مرّةً أخرى. أتعلمُ ما الأجملُ من الأحلام؟ العيشُ داخلها. العالمُ دون أحلامٍ لا شيء. يشبهُ جسدًا عفِنًا تخرجُ منه الديدان، لكنّ السؤال الأهمّ أيّها الجندي: أتعرفُ معنى أن ترى صدرًا كبيرًا لامرأةٍ ناضجةٍ، وتكونَ غير قادرٍ على التهامه؟ أقتربُ منها، تكادُ تصحو من نومها، فأهربُ من النافذة مسرعًا قبل أن تراني، أتسلَّلُ من النافذة في ليلةٍ أخرى، وناديا تخلعُ حمّالة صدرها، وتدهن مُرطّبًا يشبه الكريم على جسدها، تبدأُ بالتدليك من الأسفل نحو الأعلى، تدهنُ مؤخّرتها جيّدًا، وتبدأُ بوضع القليل على حلمتَي صدرِها. أراها بعد قليل تفركُ أسنانها، تفرُكُ بشدّة، وتلبسُ ثياب النوم بعدها، إنّها لا تراني، أو تدّعي هذا، وتهرولُ مسرعةً، من ستيلا ماريس نحو الكرمل الفرنسي، لقد قتلوها، وأنتَ تنظرُ إليّ. تكاد تقعُ من مكانك، تحدِّق في الأشياء، لستُ مجنونًا، لكنّي أشعرُ باليأس وأشياءَ حارّةٍ لزجةٍ تخرجُ من جوفي. أيّها الجنديّ اللعين، أمهلني المزيدَ من الوقت، سأقولُ الحقيقة كلّها، سأعترفُ بكلّ شيءٍ، أريدُ المزيد من الأوراق، سأكتب الكنتاتا كلّها؛ سأخبرُك بكلّ شيءٍ أعرفه عن ناديا، لكنّي أريدُ أيضًا أن أكتب عن أشخاصٍ ينزعون ثيابهم، أشخاصٍ يتنكّرون، يمشون وهم مُتنكِّرون في شوارع القدس، أو أشخاصٍ هزيلين يكادون يقعون في حيّ الهدار. إنّ هذا يشبهُ

النسيج. أريد أن أكتب عن ذلك الذي ينظرُ إلى شجرة السنديان. لقد أخبر أنّه يريدُ الاستقالةَ من العمل. لقد هزّ رأسه. هو يعلمُ أنّه وحيدٌ، وحيدٌ لكنّه يكتبُ أشعارًا، لتبتلعه الأشعار قبل كتابتها، يريدُ أن يخلعَ جسده. إنّه يلبسُ جسدًا مختلفًا عن جسدِه. مُلقًى على الشاطئ، ينظرُ إلى النجوم. يشبهُ تلك النجوم، نجومَ الصباحِ، لا الليل. لكن كيف يرى الليل داخل الصباح؟ وكيف يرى الصباحَ مُتداخلًا مع الليل؟ إنّه يسبحُ وحيدًا، يشاهدُ قمرًا، يحاولُ التقاطَه لكنّه يُخفق. أنا أشعرُ به من بعيدٍ، لكنّه يُحاولُ قتلي، يقبضُ على السكّين ويُحاولُ أن يخترقَ بها جسدي الهشّ، لكنّي أراه. إنّه يمتلكُ جسدًا مُلطّخًا برائحةِ العرق، جسدًا له طعمُ الملح. أحاولُ أن أتذوَّقه، يكادُ يأكلُ لساني. أُشعلُ غليونًا وأضعُ شوبان مُجدّدًا، كلّ مقطوعات الـC. أفقدُ عقلي ونازديا تُراقبني من بعيد. وأسمع شوبان، شوبان ساحرٌ. الحزنُ يدخلُ جسدي، يدخلُ صدغي، أنفي، لكنّه يخرجُ بهيئةِ الحزنِ، باهتٌ وكثيفٌ والليل يجنّ، ينقسم ويموت وأسمع ناديا تقول: كنّا نرى أشباحًا في الليل، أشباحًا حقيقية، إنّها ليست أشباحًا، إنّهم أناسٌ، أناسٌ حقيقيّون يمشون ويخطون خطواتِهم مثلنا، يأكلون مثلنا، أشكالُهم غريبة. لكنّهم حقيقيّون. تستيقظُ مدينةٌ أخرى في الليل، مدينةٌ لا نعرفُها. إنّها مدينةٌ تعضُّكم من مؤخّراتِكم، وتنهشُ أجسادكم. وتلك المدينة الليلة، هي بدورها مدينةٌ تملأها الغرابة! وتلك المدينة الليلة التي أسكنها، هي مدينةٌ لا يدركها سوى اللهو؛ وأفكّر في نفسي؛ أنا أموت، والليل يَجنُّ، والحبّ!، كم أريد هذا الحبّ! لكنّ هذا حبٌّ بعيد! وأسمع صوتًا قادمًا من داخل الجندي يسألني، **وماذا عن شوبان؟ لماذا تحبّ شوبان إلى هذا الحدّ؟ لماذا ليس باخ ووترياته؟** لأنّ شوبان يجعلك داخل حزنه، تستيقظُ وترى أنّ العالم أصبح كتلةً كبيرةً من الحزن، فأنتَ تقلي البيض لكنّك تأكل أحزانًا، وتشربُ الماءَ لكنّك تشربُ

أحزانًا. يدعك تمضغُ الحزن جيّدًا كي تتخلّصَ منه عندما يصل إلى أمعائك، ثمّ يخرج من جسدِك على شكل براز. لكن أتعلم ما مشكلةُ حزننا؟ إنّه حزنٌ متطفّل، يتسلّق على الأشياء كلها، حزنٌ يستولي عليك، يشلُّ حركتك! وأنت تصبح حزينًا مشلولًا وهذا أقسى من كونك حزينًا فقط! **وشوبان؟** شوبان عظيم، لقد مات شابًّا، لكنّه ترك تاريخًا عظيمًا. قد أقول خسارة، لكن لا؛ لقد عاش أربعين عامًا تقريبًا، عاش أربعين عامًا بصدقٍ، لم يعشْ هباءً، لم يعش مثلنا في حلم أوسلو! وأنتَ كيف تتخلَّصُ من الغذاء؟ أتجعله يدخلُ من المريء نحوَ معدتك، ثمّ تطحنُه المعدة ويخرج من فتحة الشرج؟... وأنتَ كيف تجعلنا ندفع ثمن أوسلو؟! أتذهب نحوها بقدميك وتجعلنا نخسر؟ **أنت تعلم بأنّك تكتب حكايةً صعبة، نحن نحاول أن نفهمها، وهذا سيصَعِّب عليكما الخروج من هنا، لقد بقي لك القليل من الوقت قبل أن ينبلج الفجر، أخبرنا آخر حكايات ناديا الفاعور!** حسنًا، دعنا نتّفق أولًا على أنّها كنتاتا، وليست حكاية عادية! اسمع، هناك رجلٌ مشنوقٌ، مُعلَّقٌ على الشجرة في حديقتنا المنزلية، إنّنا نرى هذا، وهو ذلك الذي وافق على أوسلو، لكن مهلًا، الحكايات جميعُها تبدأ بالحياة لا بالموت، ومن بعدها قد تنحدرُ إلى مستوياتٍ عقيمة، تالفةٍ تسقطُ من الفردوسِ إلى الجحيم. «ما رأيك يا قارئي في فتاةٍ ماتت في الخامسة والعشرين من عمرها، وكانت جميلةً وذكيّة، أحبّت موزارت وباخ، وأحبّتني ورفضت أن توقّع أوسلو؟» آه إنّها فتاة في الخامسة والعشرين ترفض أن توقّع أوسلو، أطوف في البيت وأراها، فتاة صغيرة بساقين مصقولتين جميلتين. لكنّي أذكر أنّها كانت كبيرةً في السنّ عندما ماتت وليست صبيّة! من يردُّ لنا الصِبا؟ وكيف للصِبا أن يعود بعد أن مات على الطريق، إنّها بعيدة، تبتعد عنّي كلّما اقتربت منها! إنّها تشعر بالخوف، بينما تقول ناديا إنّهم يعذّبون الرجال بطريقة مؤلمة جدًّا، يضعون

قضبانَ حديدٍ داخل بطونهم ومن فتحاتهم الشرجية، ثمّ يفلخونهم، بعدها يبدأ الجسدُ بالتفسُّخ. يتفسّخ الجسد، وتتفشّى رائحته، والشيوعيُّ صاحبُنا يشمُّ الروائح بدقّةٍ شديدة. يغتصبون النساء ويضربونهنّ ضربًا مبرِّحًا. طرقُ تعذيبٍ شنيعةٌ ومرعبة، استعملتها الدولة العثمانية أولًا مع الأرمن، ثمّ استخدمها اليهود مع أهل فلسطين، تُكمل ناديا؛ والشيوعي صاحبنا يرى زجاجة البيرة، لكنّه يرى كارل ماركس داخلها، يرى أنّه ماركسيٌّ عظيم. قال إنّه شيوعيٌّ، لكنّه حقيرٌ، وناديا أذلّته دائمًا. غير أنّه اليوم صار يرى الأشياء بطريقةٍ مغايرة، ويقرأُ أشياء كثيرة، يقرأُ كلَّ ما تقعُ عليه يدُه من مخطوطاتٍ وروايات وقصص، ويحبُّ الأدبَ الإسبانيَّ وأدبَ أميركا اللاتينية على وجهِ الخصوص، ويذكرُ أنّ كلَّ هذا كان قبل أعوامٍ كثيرة بعيدةٍ، ويخاف أن يلتقطها من جديد، ويكتبُ في مذكّراته فقرةً من كتابٍ كان قد أحبّها ودوّنها على النحو التالي: يقول أحد الأدباء الذين يكتبون بالإسبانية: **«وأنت الذي تقرأ لي، ألمْ يحدث لك ذلك الذي يبدأُ بحلمٍ ويعود في عدّة أحلام، لكنّه ليس كذلك؟ ليس حلمًا فقط، بل شيءٌ موجودٌ هناك، لكن أين؟ كيف؟ شيءٌ يجري لحظة الحلم بالطبع. حلمٌ صُرِفَ لكنّه في ما بعد ما يزال هناك أيضًا بشكلٍ آخر، لأنّه رخوٌ ومليءٌ بالثقوب. بيدَ أنّه هناك فيما تُسوّكُ أسنانك، وفي قاع الحوض ما زلت تراه فيما تبصقُ معجون الأسنان أو تضعُ وجهك تحتَ الماء البارد. ثمّ يتضاءل، لكنّه لا يزال عالقًا بالبيجاما، بمنبتِ اللسان، وأنت تُسخِّنُ القهوة هناك. لكن أين؟ كيف؟»**. تقول ناديا الفاعور إنّ الدولة العثمانية وإسرائيل وجهان لعملة واحدة! لقد كان السلطان يخطف أولادًا ويمارسُ الجنس الشرجيَّ معهم. أوّلًا يجلبُ الأولاد من بلاد الغرب البعيدة، يجعلهم تحت سيطرةِ حرسه الخاصّ، يُروَّضون، يُغذَّون، ويُربَّون داخل القصر، وعندما يكبُرون يصيرون

جاهزين لممارسة الجنس، يأخذهم السلطان نحو غرفةٍ سرّية في القصر عازلةٍ للصوت، حتى لا يُسمع صوت أنينهم الحادّ، وهناك يعذِّبهم فيربطُ كلَّ قضيبٍ بخيطٍ مطاطيٍّ مُؤلِمٍ، كي يحرِّكه كالدمية كما يحلو له. يكبِّل أيديهم أيضًا، ويعصرُ قضبانهم بأقوى ما لديه. السلطان سمينٌ جدًّا، كان قبيحًا، تنفرُ منه النساء ويقرفن. وكان يحبّ بلع المَنيّ أيضًا. يبلعُ منيّ هؤلاء الأولاد. هذا مقرفٌ ومُقزِّز، لكنّه يحبّه. الأكثرُ جنونًا أنّه كان يخلط المنيّ بالطعام ويتناوله في رغيف خبزٍ ساخنٍ ينبض كما ينبض القلب. إنّه مشاكسٌ ووقح، هكذا أخبرتنا ناديا عندما كنّا أطفالًا، ما أقسى أن تكون هذه المدنُ الكبيرةُ مليئةً بالفُحْشِ، وبيوت الدعارة والملاهي الليليّة. وفحولٌ يوافقون على أوسلو، يكبّرون بحمد أوسلو، عاهرون في كلّ مكان يجولون بحُريّة، ينطلقون، يسرحون ويمرحون، وقصرٌ كبيرٌ يسكنه سلطان أخرق، يقولون إنّ والده – السلطان السابق – اغتصب والدته، لذلك وُلد هذا السلطان عنيفًا وقاسيًا. إنّه لعنة. يقولون إنّه يشبهُ النساء، إذ يضع أقراطًا ذهبية لامعة مزيَّنة بالزّمرّد. إنّه يحبُّ مجوهرات النساء؛ قد يكون امرأة، مَن يدري؟ الكثير من الأشخاص يملكون أعضاءً جنسيةً مُشوَّهة، تكون امرأةً بجسد رجل أو رجلًا بجسد امرأة، وإنسانًا بجسدِ حيوان أو حيوانًا بجسد إنسان. إنّها مسألة دقيقةٌ معقّدة، حيث يُولدُ الإنسان كما تولد الحكايات، من مكانٍ بعيدٍ جدًّا وراء ذلك الجبل. هكذا قالت ناديا لنا، وأحيانًا نُولد داخل أجسادٍ معقّدة تفوق طاقتنا. لكن ما الحلّ؟ «قلتُ لَك إنّ ناديا كانت تقرأ ألف ليلة وليلة بنَهَمٍ كما كان يقرأُها بورخيس، صحيحٌ أنتَ لا تعلم شيئًا عن بورخيس، ولم تقرأ كتابه الألف، وأقول مجدّدًا، حسنًا ماذا عن أول إنسانٍ سكن مدينة القدس، لقد كان قبل العصر الحديديّ، حسنًا، بعد أن حفرْتَ بأنيابك الجبال هل وجدت مملكة سليمان المفقودة، هل وجدتَها؟ أجبني، جنديٌّ، عاهرٌ، ويلكمني

في ظهري، ويلكمني في أنفي، والدماء تطيرُ، وبسيل تتوسَّل، وأسمع جدّي يقول: **«أجلسُ على السرير، أتمدّد قليلًا، أخلعُ ثيابي، أفكّر في ناديا، قضيبي ينتصب، وأعلم أنّ صدرها الكبير قد غادر منذ أيّام، لكن يُخيَّل لي أنّني ألحسها وتلحسني، شيءٌ يشبه المداعَبات لا أكثر. لطالما كانت تجول في عقلي دون توقّف. امرأةٌ صعبةُ المنال، أريد التقاطها. لكنّي لا أستطيع، تجعلني أحبو نحوَها مثل وضيع»**. آه من الصّعب تذكُّر كلِّ هذا، من الصَّعب كتابتُه. إنّها تأتي وتذهب نحو عقله، اسمها ناديا الفاعور! تشرب معه الويسكي أحيانًا، وأحيانًا تختار الفودكا. أمّا البيرة فلها قصّة مختلفة، إنّها تسكبُ البيرة على صدرها، فتتدحرج نحو عانتها، تفركُ عانتها بالبيرة، وتقبضُ على رأس جدّي بشدّة. إنّه يذوبُ فيها، وأفكّر في نفسي وأعترفُ، لقد عشت معها أسابيع قليلة، أو، لا. كان ذلك شهرًا أو اثنين، أو سنة. حقًّا سنة؟ كم من الوقت مرّ؟ أعوامٌ كثيرة. وعندما أقرأ هذا مجدّدًا بحلول الألفية – إن بقيتُ على قيد الحياة – سأخبرُ أطفالي بأنّ الحبّ مُضِرٌّ، وشيءٌ لا يُنصَحُ به بتاتًا. إنّه مدمِّرٌ، يدهشك، يجعلك خنزيرًا كبيرًا أو شيئًا يشبهُ الخنوص، تُقدِّمُ تنازلاتٍ دون توقّف، تخسرُ فيها القليل من جسدك ومبادئك، ثمّ تعودُ إلى ذاتك مجدّدًا لكن بعد أن تصبح إنسانًا مختلفًا، وشعورٌ يبزغُ من الداخل يجعلُك هجوميًّا. شيءٌ يلكمك. أفّ! الحبّ... يا لها من كلمةٍ ماكرة. إنّها خدعة، إنّها ناديا تُراقبُ أفكاري وتجعلني أغرقُ في قاعها. لقد عشتُ أيّامًا لا تُنسى معها، وإن كانت قليلة! من قال إنّ العفّةَ مُهمّة؟ أنا أعترفُ، إنّي شرموط، شرموط لكنّي صادق، أملكُ ضميرًا، وأفعلُ ما يحلو لي دون أن أؤذيَ أحدًا، ولا أدّعي المثاليّة ولا أوقّع أوسلو، أكرهُهم أولئك الذين يَدّعون المثاليّة، ويتكلّمون عن المبادئِ باستمرار؛ إنّ هذا كذبٌ، والحقيقةُ أنّ صدرَها جاثمٌ على صدري وأنا أسمع خطواتِ قدميها، وطقطقةَ أصابِعها وقرقعةَ

عظامِها، وصوتَ معدتِها. إنّها تتمدّد فوقي مثل صخرة حديد ثقيلة، أراها مثل غالا! أتعلم من هي غالا أيّها الجنديّ! أنت لا تعلم ما يدور في عقلي! ومن جديد صوت بسيل في دهليز الأذن؛ أنت لا تكتبُ لكي تنقذنا، أنت تكتب لتُنقذَ قصص ناديا، أنت تكتب، لا. أنتَ تهلوس، تكتبُ أشياء متداخلة وغير مفهومة، وتقول إنّها حكايات ناديا وخرافاتها، أخبرُ بسيل بأنّي لا أعلم سوى حكايات ناديا، وتقول: إنّ حكايات ناديا هذه لن تنقذنا! بسيل، لماذا تخافين الموت؟ أنا لا أريد الموت! لماذا لا تفهم؟ يجب أن تكتب شيئًا يُنقذنا، أدفعُها مجدّدًا، وأرى هامو قد أصابها النّعاس، وأمل تشعر بالظمأ، وسامو يُحتضر، وأسو يبكي، أمّا بيبو فكان يلعب، وعيّوش تضعُ أحمر الشفاه وتبحث عن عريس، لقد علقْنا هنا... أخذنا اليهود، قتلوا ناديا وأخذونا... **ما مشروب جدّك المفضّل؟**، الصويا، أنت تعلم أنّه الصويا، وتعلم أيضًا بأنّي لن أوقّع أوسلو، وتعلم بأنّ جدّي لا يستحقّ ناديا، أسو، سامو، هامو، أمل، عيّوش، بيبو، أنتم أيضًا لا تستحقّون ناديا، يقول الجندي إنّ محمود درويش فشل في أن يكون الشاعر الوطني لفلسطين، سميح القاسم أيضًا، أمّا هرتسل فقد نجح في أن يكون بطلًا قوميًا لليهود، ويقول إنّي أخاف من أن ألعب معه أوسلو مجدّدًا، أقول؛ أتعلم ما يعني كلّ هذا؟ أنت تريد منّي أن أعترف بإسرائيل كدولة! لكنّي لن أعترف بها! أتعلم لماذا؟ لأنّك لا تملك سوى رواية توراتية باهتة! ولأنّ الأديان كلّها لم تكن إلّا أشياء مكتوبة على ورق، قصصًا وحكايات! والآن أخبرني! وإن قتلتُ لك ذلك الإله الذي يتيح لك سرقة أرضي، الإله الذي يعدك بأرضٍ ليست لك، أتخرج من فلسطين؟ من أرضي فلسطين حتى أكون أوضح معك! ودعني أسألْك مجدّدًا، ماذا تعني لك فلسطين، ماذا تحبُّ فيها؟ ماذا تكره؟ كيف ترى فلسطين؟ كيف ترى وادي النسناس؟ كيف ترى كلّ تلك البلاد التي أتيتها من الغيتوات! أو لا،

إنّك لا ترى حيفا، لأنّك لا تعيها، ولا تستطيع أن ترى القدس كما أراها، لأنّ التوراة تقول لك إنّها مملكة تُدعى أورشليم، وتقول لك إنّها أرضُ الميعاد!، لكن يا لك من ضعيف الإيمان، fuck، أنت تؤمن بذلك الإله! وأنت تُصدّق أنّ هذه الأرض أرضك، لكن أتسمح لي بسؤال! ماذا لو كانت شعوب بحر البلطيق هي التي تسكن هنا في هذه الأرض، تلك الشعوب التي تملك عيونًا ملوّنةً، وجسدًا أبيض، أتهجّرهم من أرضهم؟ أشكّ في هذا! اسمع، أنا أكره كلّ من ينسى فلسطين، وتقول إنّ الشعب الفلسطيني هو شعبٌ لا وجود له! اسمع، أتريد أن أخبر العالم عنك؟ أتريد أن أخبرهم عن حقيقتك! ما رأيك أن تلعب معي لعبة؟ ليست أوسلو بل لعبة أخرى. إنّها لعبة النار!

CANTO IX: The death of the fisrt trees

أنا من داخل الكنتاتا الآن، أن ألعب في النار يعني أن أقرَّ بأنّ دولة إسرائيل، التي هي دولتنا الوحيدة، هي دولة أبارتهايد! لا يا سيدي، يجب أن تعلم بأنّها دولة أبارتهايد منذ نشأتها، **كيف تكون أبارتهايد؟** أنتم دولة فصل عنصري! **أتقول فصل عنصري؟** أنت لا تعرف ما معنى العنصرية، لأنّك تعتقد بأنّك لا تمارسها وإن مارستها تقول إنّ هذا من حقك **نحن لا نمارس أيّ عنصرية، التوراة تقول بأنّ أورشليم لنا، أتعلم ما تقول أولى كلمات التوراة؟** أنت لا تزال تقول التوراة **أنت لا تسمح لنا بالصلاة في باحات الأقصى!** أنت لا تريد الصلاة، أنت تريد الاستيلاء، تريد التخريب! وتستعمل الدين حجّة. **أنت تريد أن ترمينا في البحر!** آه في المياه صحيح! لكنّي أترك لك فرصة للنجاة، فيما ترمينا أنت في الجحيم، ولا تترك لنا أيّ فرصة للنجاة، **لماذا لا تذهب إلى غزة أو سوريا؟** أنا من حيفا لماذا أذهب إلى غزة، حيفا هي بلدي، **حسنًا اعترف بإسرائيل كدولة،**

وسأدعك تعيش في حيفا! أوسلو. أوسلو...، أنت تقول أوسلو، **أنت مواطن إسرائيلي، أنت عربي إسرائيلي لماذا تنكر هذا؟** أنت تحاول أن تمحو هويتي! إنّها تسمية حمقاء، كيف يكون العربي إسرائيليًا! وأنت تقول إنّ إسرائيل هي لليهود فقط! أنا فعلًا أموت، **إسرائيل هي دولة لليهود، لليهود فقط، لكنّك عربي إسرائيلي!** الازدواجية في الطرح! **أنت تريد حلّ الدولتين!** أنا أريد أن ينتهي الاحتلال! **كيف ينتهي الاحتلال وأنت تعلم بأنّ الله قال كلماته،** أنت لا تعلم بأنّ الإله غير العادل الذي اخترعتموه يموت! أنت لا تملك سوى التوراة! **التوراة هي كلّ شيء، التوراة هي أورشليم!** لكنّك لا تعلم شيئًا عن حيفا! **إنّني أرى حيفا من خلالِك، أرى حيفا داخل رأسك، كيف تراها وتقول بأنّنا احتلال! قل لي لماذا تطلبُ من كلّ الناس أن يحبّوا فلسطين، إنّك تُقصي حريّات الآخر، أنتَ لا تُؤمن بالحريّات المطلقة، أنتَ تُطلقُ أحكامًا،** أنتَ لا تعلمُ شيئًا عن فلسطين، الأرض التي مساحتها 27 ألف كيلومتر، تمتدُّ من صفدَ حتى إيلات، فيها رام الله وبيسان، وحيفا. أنتَ لا تعلمُ أنّ فلسطين تكبرك، إنّها تاريخٌ يمتدّ لأكثرَ من خمسةِ آلاف عام، إنّك تمشي في الشوارع، وترى حدائق البهائيّين، الكرمل الفرنسيّ، شارع الجبل، وادي الجمال، وادي السيّاح، شارع طبريا، مسادا، ساحة الحناطير، **لا، إنّه كيكار باريس ليس ساحة الحناطير،** لا إنّه ساحة الحناطير، – وأنت مثلَ الأخرق، تُردّد كلّ تلك الكلمات، وتُعلنُ حربًا من أجل شارعٍ تافهٍ لا معنى له!

– **وتقول إنّك تُقدّسُ الذاكرة، والآن قل لي، ما هي فلسطين؟ أنا أعرف أورشليم، وأنت تعرف فلسطين. ما هي فلسطين؟** فلسطين هي ذاكرة، **لكنّ الذاكرة تُمحى،** لكنّك أخفقتَ، لا تعلم أنّ هناك أشياءَ لا تُمحى، فلسطينُ ذاكرةٌ لا تُمحى، لأنّي سأمرّر هذه الذاكرة لأولادي! فنحن نملك ذاكرة عابرة! وأنت تملك ذاكرة متحجّرة منافقة!

مليئة بالأكذايب! **مَنْ يقولُ هذا؟** أنا أقولُ هذا، أليس كافيًا؟ أنتم اليهود متَّهمون بجرائمِ قتلٍ بشعة. – لقد قالت لي ناديا ذات يومٍ إنّ اليهود يُحاولون إعادة صياغة تاريخهم الفعليّ، يُحاولون بناء التاريخ من جديدٍ بما يناسبهم وبما جاءت به التوراة، لقد خبّأتْ ناديا تلك الأوراق، لقد دفنَتْها – **أين دفنت ناديا الوثائق؟** في الكرمل الفرنسيّ لكنّك لن تجدها – يلكمُني مُجدّدًا –، **أين في الكرمل الفرنسيّ، هيّا أجبني، أين في الكرمل الفرنسيّ؟** الأمواتُ لا يأكلون، أنا ميتٌ، إذن عليَّ ألّا آكل، نحن الحمقى، أنت الأحمق، كلّنا حمقى، –يضربني–، أكرّر أنتَ أحمق، كلّنا حمقى، أنتَ مجنون، إنّ الجنون هو من صنعَ الإنسان، والوحشيّة لا توجدُ في الحيوان بل في ترويضه! **هيّا، قل لنا كلماتِك الأخيرة قبل أن تموت**... كنت أمشي وحيدًا على الجسر الكبير، وكنتُ وحيدًا أفكّر، أستنشقُ السماء وأموتُ، وأكتب كنتاتا طويلة!، **ماذا، أنا لا أسمعُك تقولُ إنّك تحبُّ الرجال؟** لا أقول إنّني أكتب كنتاتا عن حُبّ الرجال والنساء معًا **وماذا تقول للمرأة؟** أقول إنّني لا يمكنني العيش من دونها، **وماذا تقول للرجل؟** أقول له إنّه يجب أن يحبّ المرأة أكثر، **وماذا تقول لحبيبك الغامض ذاك؟** أقول، أحبّكَ مثل النار، مثل الحمقى، كالمجانين في الشوارع، أحبّك مثل غسيلٍ رائحتُه نضرة، كالمجانين في الزُّقاق، أحبّكَ مثل الشّواء، مثل الصَّرْع، كالمَجانينِ في الحاناتِ الليليّة، كالمجانين الذي يحبسون أنفسَهم في الثلاجات، أحبّكَ مثل النارِ المُلَتَهبة، مثل الجمرِ الذي يحرقُ جسدي، أحبّ ذهنك الكبير الذي يجول بشموخِ فوكو رافضًا الخضوع، أحبُّ دماغَك، عقلَك، أفكارَك، طموحَك، خيباتِك، أحلامَك، طهارتَك، يأسَك المُزْمِن، فِسْقَك الكبيرَ، مُخاطك فوق فاهِك، لُعابَك وسيلانَه من ذقنِك، أحبُّكَ وأبتلعُ السماء وألوكُ الأرض، وأمضغُ الرياح، لكنّي سرعانَ ما أجترُّك، أبصقُك كالمجانين، ألا تَعلم

بأنّي بحبلك واصلٌ حبلي وبريش نبلك رائشٌ نبلي وأنّي أحبُّك مثل النارِ المُلتَهِبة ثمّ أموتُ، **ماذا تقولُ لنا الآن؟** كما قال أحد الكُتاب الكِبار «أنت لا تسيرُ في الشارع بلْ تتقدَّمُ مُسرعًا، وأنتَ لا تدخلُ مكانًا بل تجتازُ عتبتَه، وأنتَ لا تشعرُ بالبرد ولا بالحرّ، بل تجدُ أنّكَ ترتجفُ أو تشعرُ بالعرقِ يتصبَّبُ منكَ». لم أسمع أيّ كلمة منك بعد وأنا لم أسمعْ كلمةً واضحةً واحدةً منذ ساعاتٍ، فأنتم هنا لا تُتقنون شيئًا سوى الأكاذيب.. فأنتم لا تُتقنون شيئًا غير الخواء والمواء، وإذا ألقى مُخَرِّبٌ حجرًا على نافذتِكم فإنّكم تظنّون أنّ يومَ القيامة أتى... هذا لأنّ أدمغتكم فاسدةٌ ليس فيها سوى البخار، ولأنّكم لا تفعلون شيئًا غيرَ أن تعطسوا، ثمّ تنظروا وتصيحوا «هذا سحر!»... إذا ما أدخل أحدُهم أعوادًا في أنوفكم. فإنّ ما سيكونُ سحرًا حقيقيًّا – أيّها المنحطّون – هو أن يُوقظَكم أحدٌ فتُدركوا أنّكم لا تعيشون على القمرِ بل في أورشليم، وأورشليم أرضٌ لا وجود لها! وتعرفوا أنّ الشمال يكونُ إلى جهة الأعلى، والجنوب إلى جهة الأسفل، وتعرفوا أنّكم في مكانٍ يكون فيه يوم الاثنين أولُ أيّام الأسبوع، وشهر كانون الثاني أولُ شهور السنة! ليست لديكم أدنى فكرة عن أيّ شيءٍ، وأنتم لستُم قادرين على معرفة الفرقِ بين مدفع الهاون وثلاث بنادقَ هوائيّة، لكنّكم ماضون في الثرثرةِ عن الجائحةِ التي تُنذرُ بنهاية العالم، وتعرفون أنّ الأيام التي انقضتْ لن تعودَ مُجدّدًا، وأنَّ كلّ شيءٍ قد عشتُموه قبل هذه الأيّام هو شيءٌ حزينٌ وقاسٍ مثل الخَرَف! إنّهم يمزّقون أجسادكم، ويأكلونكم ببطءٍ وأنتم لا تشعرون، إنّكم منشغلون بمُمارسة شيءٍ جميلٍ يُدعى الجنس، وتتسكّعون في المطاعم والحانات، وتحتسون زجاجاتِ بيرةٍ ذات تركيزٍ عالٍ من الكحول والآن! نعم بكلّ تلك البساطة قد انتهى كلّ شيء! لقد انتهت تلك الليالي الطويلة التي كنّا نتسامرُ فيها، ومن خلفنا تظهرُ شمس فلسطين الساطعة، لقد خدعونا ونحن أغبياء، عراةٌ،

نتهاتفُ خلف المباني، نصرخُ. لكنْ لا صوتَ لنا، نمشي لكن لا نتقدّم، لقد غادر القطار، وصلنا متأخّرين، لقد غادرَ القطار، ومن فوقنا قد أعلنوا استقلال إسرائيل، ولافتةٌ كبيرةٌ من فوقي بأحرفٍ عبريةٍ تقول:

«ברוכים הבאים לארץ ישראל»

أهلًا وسهلًا بكم في أرض إسرائيل، **وناديا؟** آه ناديا، إنّها عالقةٌ في الحلق، جرحٌ كبيرٌ، حلمٌ صعبُ المنال، قل لي الآن، لماذا قتلتُم ناديا؟ لماذا قتلتموها؟ **لقد خبّأتْ عنّا الوثائق**، أيّ وثائق؟ أنتم تريدون هدمَ منازلنا، ولا تستطيعون أن تهدموا شيئًا دون أوراق ناديا، لقد قتلتُم ناديا من أجل مملكة سليمان، أنا لا أعلم إن كان سليمانكم موجودًا، لكنّي أعلم أنّ ناديا كانت حيّةً، وما تزال حيّةً في عقلي، وأتنفَّسها كلّ صباح ومساء. لماذا قتلتُم ناديا... **لأنّك تحبّها مثل النار. ولأنّك لا تعرفُ سوى أن تحبّ مثل النار، لطالما أحببتَ كلَّ شيءٍ مثل نارٍ! في النهاية، تأكلُك نيرانُك**. ارمِني في النار، في النار، في النار، في النار أموت، ومن النار سأولد، **وبعد ذلك ستذهب إلى الكنيسة في وقتها المحدّد؟** سأذهب، لكن لا تنسَ أن تضعَ أورشليم في طيزك! داخل طيزك! دعها تكبر في طيزك ارسمها في طيزك، **وماذا يقول الله في ذلك؟** هأنذا أُرسلُ إليكم إيليّا النبيّ قبل مجيء يوم يهوه العظيم، فيرد قلب الآباء إلى الأبناء، وقلب الأبناء إلى الآباء، لئلّا آتي وأضرب الأرض وأطردكم من فلسطين، أمّا أنا صبيّ دار فاطمة الغول الذي رأى كلّ شيء فأقول: اهربوا منها لا إليها. **وناديا؟ إذن ناديا ليست جدّتك!** آه ناديا في الحلق، ناديا في الروح، إنّها على الحائط، إنّها في كل مكان، أراها في حيفا، تلوّح بيدها من بعيد، أنا لا أنسى ناديا، إنّها فتاة مثل النار، ناديا هي من قامت بتربيتي، وأدعوها جدّتي، أنا لا أحبّ سوى ناديا، وأنت لا تملك جدّة

مثل ناديا، أنت لن تعلم شيئًا عنّا هنا في هذه الأرض، أنت مجرّد دخيل يلعب معنا لعبة أوسلو. آه ناديا، على الأرائك، في المطبخ، بين الشوك والملاعق، على الأرضية الملطّخة باللون الأصفر، شهيّة مثل النار، ناديا في وضعية الحلق العميق، ناديا بين الأرداف، ناديا تحضن بيبو، ناديا تمشي في شوارع حيفا، تلوك الفجر، تبصق الفجر، وأنت جنديّ لعين يحاول أن يقتلني، لكن ناديا لا، ناديا داخل الشراشف، في حوض الاستحمام، تشرب اللبن، وتأكل العكوب، ناديا هي فلسطين. **دعك من ناديا، فلتمت فلسطين، وتعال نلعب أوسلو**. أذهبُ إلى الموت، ولا ألعب أوسلو مجدّدًا، سأذهب إلى ناديا، وأنا في حجرها سأراكم مثل الحمقى تهربون. **عبّاس! أنت عبّاس!** عبّاس؟ من عبّاس؟ **تقول إنّك قرأت جاديس؟ هل قرأت فعلًا جاديس، قل لي أنت الآن هل قرأت كاربتيه أيضًا**، حسنًا هل تريد أن أحصي لك قراءاتي عوَضًا عن خيباتي؟ فوكنر أولًا، المسيسبي أولًا، أبشالوم أبشالوم بكلّ تأكيد، بعدها جويس، أيضًا لا مفرّ من جاديس وإستر، لا مفرّ من بنشون وبوكلير وميللر، أوه ميللر أولًا بكلّ تأكيد، لا مفرّ من بورخيس وكورتازر وخوليو رامون، لا يمكنني أن أنسى غارسيا ماركيز، لا يمكنني أن أنسى بروست، لا يمكنني أن أنسى كلّ من علّمني الكتابة، لكن أنا حزين، وأتمنّى أن أكتب مثل جاديس، لكن كتبه طويلةٌ جدًا، وأنت لا تسمح لي بأن أقول الكثير، لكن بكلّ تأكيد أنا لاّ أحب دوستويفسكي، كان يجب أن أقتل شبح دوستويفسكي أولًا كي أتقدّم نحو جويس **سنجعلك تُغادر حافيَ القدمين ومن ثمّ تموت**، آه ألا تعلم بأنّ الأشجار الأولى لا تُغادر؟ ألا تعلم بأنّي مثل ناديا لا أموت. وماذا يقول الشاعر داخلي، إنّه يردّد هذه الكلمات؛ هل شعرت يومًا بالمائدة ساعات الظهيرة؟ والفاكهةُ تموت، والخضار نازحٌ من مأواه والشُوَك والملاعق تحدّق فيك بينما تقبعُ في القاع،

والسجاجيد التي يُخيَّل لك أنّها حمراء تسحب ذاتها من تحتك بينما تحاول الجلوس على الكرسيّ، والكرسيّ بدوره يتحطّم، والمائدة تموت، آه إنّها فعلًا تموت، ألا ترى كلّ هذا! والآن، هل شعرت يومًا بالمائدة ساعات المساء؟ والشموع وحدها، وليالٍ طويلة لا تنتهي، وحبّ يفارق وآخر يموت، والفاكهة تحاول النهوض من الموت والخضار لا يعرف سوى طريق البيت، وأنت لا تزال في القاع. وأخيرًا هل شعرت يومًا بالمائدة ساعات الفجر؟ بقايا طعام في الصحون وطعامٌ عالقٌ في اللُعاب ومحاولات أخيرة للنجاة وأشباهٌ من النساء وأشباهٌ من الرجال يجولون في فناء الدار ويشاهدون موت الأشجار الأولى، وأنت بدورك تموت، أخبرني! لماذا تموت إذن عوضًا عن النجاة؟

CANTO X: Epilogue

عبّاس، أيّها الغول، يجب أن أعترف. لم أعد أحتمل، يجب أن أقول الحقيقة. لقد هلكت! عبّاس، أيّها الغول، أنا أغار منك. الغيرة فعليًا تقتلني، تشلّ حركتي. عبّاس، أراك تحدّقُ في إبطي. عبّاس يا حبيبي، يا لك من مخلوق! أراك تُقَطِّع نعلي، وتلعق نهد ماما ناديا. عبّاس، أيّها الحبّ الكبير، لماذا تفضّل الصمت عوضًا عن الكلام؟ أنت تعلم أنّ الحياة قصيرة جدًّا، وأنّ الموت لم يعد يقف على الأبواب، بل كسر الأبواب كلّها واستقرّ في الصالون؟ وأصبح أقرب من حبل الوريد؟ وتعلم أنّك مخلوق غريب الأطوار، مخلوق يطوف الديار دون أن يشعر بالتعب. اسمع، هناك أناس مصيرهم العيش، وهناك أناس مصيرهم الموت، وهناك آخرون، بعيدون جدًا، يعيشون متنقّلين بين الحياة والموت، على حافة الجنون بعيدين عن المنطق، ما أقسانا! لقد قسمنا العالم قسمين أو ثلاثة وأحيانًا أربعة أو سبعة وسبعين، عبّاس، أنت وحدك الذي يعلم كيف يتحرّك هذا العالم. هذا عالم لئيم! والعيش

فيه شيءٌ مقلقٌ للغاية. صدّقني لا أعاني من رُهاب الأماكن المغلقة أو الضيّقة. لكنّ هذا العالم الذي من المفروض أن يكون كبيرًا، بدأ يضيق. بدأ يتقلّص، لا يأخذ أنفاسه. ولعلّك بدأت تلاحظ أنّ شاكرات جسدك بـدأت تخسر طاقتها، خصوصًا الشاكرا الثانية والشاكرا الثالثة. لكنّ مشكلتك الأساسية أنّك تفشل في أن تكون إنسانًا، أنت تحلم بأن تملك قوامًا رشيقًا، وصدرًا كبيرًا وذكورية عالية، لكنّك لا تحصل عليها. حسنًا، ما المشكلة إن أحببت قوامًا مصقولًا وقويًّا. أنا لا أرى أيّ مشكلة، فهناك نساءٌ يحببن نساءً، ورجال يحبّون رجالًا، ورجال يحبّون نساءً، ونساء يهوَيْن الرجال. وذلك العالم، آه ذلك العالم الذي تعيش فيه يا عبّاس، مثير! مدهش. أنت تثير دهشتي، متى يشعر الإنسان بالدهشة الحقيقية؟ ما تعريف الدهشة، أو الحلم، أو الشباب؟ والآن يا عبّاس! كيف تُعرّف عن نفسك؟ كيف تقول لنا من أنت؟ أخبرني، عبّاس، كيف ترى ذلك الأنف الأفطس الذي ينعكس أمامك بينما تحدّق في المرآة، وتلك الذراع، والمفاصل التي تلاحظ ليونتها؟ وأحيانًا ترى نفسك امرأةً ترتدي التنانير القصيرة، لقد أتيتني في الجلسة الأولى على هيئة فتاة نضرة، تشعّ جمالًا. ثمّ تحوّلت إلى رجلٍ كبير، ذي عضلات ضخمة. ومن بعدها إلى قطّ صغير يحبو في الديار. إنّ الحيرة شعورٌ قاتلٌ يا عبّاس. وتعلم أنّ الحياة ليست إلّا وداعًا طويلًا. وأنت عبّاس، أوف يا لك من محظوظ، عبّاس المحظوظ، أنا أحسدك. عبّاس المحظوظ، أنا أغار منك. لكن أتعلم كيف أشعر بالغيرة؟ إنّها تحرقني من الداخل، أنا فعلًا أغار منك. ولا أعلم السبب بالتحديد، لكنّي أعتقد بأنّك أكثر حظًّا منّي أنا، لأنّك تعيش حيوات لا أعيشها. لا أستطيع عيشها. ولذلك أغار منك بشدّة. إنّك تعيش حياةً مليئةً بالمغامرات. هيّا دعني أحصِ لك مغامراتك المرحة جدًا لكنّها مغامرات خطرة على الرغم من حلاوتها. يقول السيد إ.ب.ح التالي:

«إنّ أولئك المفكّرين يكادون يجمعون على أنّ الحبّ اتّصالٌ بين الأرواح والنفوس، أو بين روحين ونفسين، على سيبل المشاكلة، والتكافؤ في الطريقة، والمطابقة والمجانسة في التركيب، أو أنّه تمازج بين جواهر النفوس بوصل المشاكلة والمناسبة والمساكنة، أو أنّه اتّفاق الأهواء وتمازج الأرواح وتراوح الأشباح، وعبّر أكثرهم عن قوّة الحبّ وسلطانه ونفاذه بصور مختلفة لكنّ المرمى واحد. واتّفق أكثرهم على وصف حال المحبّ بالتذلّل، وما إليه من مظاهر فقالوا... إنّه يخضع لعبد عبده، دائم اللوعة، طويل الفكر، شيطان من الداخل، صومه البلوى، وإفطاره الشكوى، ينوح ويجوح، يتفوّه بالأمانيّ ويتعلّل بالأطماع، هذا هو الإنسان، فهذا هو جسدي بكامل لوعته، وإن اقتربته تحترق، لكن مهلًا ماذا عن لصوق الحبّ بالقلب من نظرةٍ واحـدة.......... مستحيل». لقد مزّقت صورتـها، ووضعتها تحت الـوسـادة. ومن بعدها نهضت مسرعًا كي تعاود إلصاقها من جديد. ورغم محاولاتك البائسة في جمع أشلائها المقطّعة، فشلت وبكيت. وبينما كانت دموعك تسيل، شعرت بالانهيار، وقلت إنّه الحبّ. ذلك الشيء الذي لا تعرف سواه، لقد تعرّفت إليها في المدرسة، وقتها كنت قد بدأت بالتدخين بشراهة، وكانت هي طفلة صغيرة، وشعرها طويل يصل إلى خاصرتها، وكانت تحبّ المصّاصات بطعم التوت، وتراها تتغندر في باحة المدرسة بينما تحترق من الداخل، وتذوب فيها وتشعر بأنّها لا تحبّك، بل تحبّ رفيقك. اللعنة! تحبّ رفيقك اللزم. وتشعر بالغيرة من رفيقك اللزم. والغيرة شعور غريب، لا تستطيع أن تصفه. شعور مقلق، ومحيّر جدًّا. وتقترب منها بينما هي تبتعد عنك، وتشعر بأنّك تريد قتل رفيقك اللزم، ثمّ تحاول أن تُهدّئ نفسك ببعض الأدويـة. وبعدها تأتي بفأسٍ صغيرة، وتقترب من رفيقك اللزم، بينما كان يشخّ في حمّام المدرسة. وتشقّ جمجمته. وترى الدماء تفور، وتشعر

بالراحة، وتشعر بأنّ شعور الغيرة انزاح من جوفك، وبأنّك تخلّصت من عبءٍ كبيرٍ، وتأتي بورقة صغيرة وتقرّر أن تكتب عليها شِعرًا، وتقول:

Now I am 31 or so they say,
With a small poetry business of my own
Alas, my hair is starting to go grey
And all my friends are getting overblown

ومنذ ذلك اليوم قرّرت أن تصبح شاعرًا كبيرًا. لكنّك لا تعرف كيف يصبحون شعراء. لطالما كان يراود ذهنك سؤالٌ سخيف... هل يولد الشاعر أم يُصنع؟ وكيف يمتهنون صنعة الشعر؟ كنت قد درست أشعار المتنبّي، وشيرازي وبعضًا من شعر الرومي، وأشياء من ت.س. إليوت لكنّك لا تزال تخفق، وتكتب أشعارًا رديئة مثل ماما ناديا. قل لي لماذا هذا الإصرار الكبير؟ لماذا تصرّ على أن تصبح شاعرًا؟ ألا ترى هذا البلد الأمين، الذي أصبح فيه الشعراء يتبارزون بحماقة شديدة؟ والكلّ يتاجر بقضايا مثل الحنين إلى الوطن، وفلسطين، وبعض من الحبّ المستهلك جدًّا. صدّقني، ذلك الحبّ لا وجود له. حبّ المدينة الفاضلة، ذلك الحبّ الوردي، الذي يبدأ من الرأس حتى أخمص القدمين. لقد خدعونا. ذلك الحبّ الذي تقرؤونه في الروايات لا يمكن أن يكون. أخبرني، كيف يمكنك أن تجد حبًّا مثل حبّ بروست لألبرتين مثلًا؟ إنّك بالكاد تجد حُبًّا عابرًا مثل حبّ صابر لكريمة مصيره الفراش فقط. لكنّك تعلم أنّ صابر مشوّش الذهن، ومشتّت، وأنانيّ، ويحبّ إلهام أيضًا، أوف صابر، يا له من شخصية قوية. لقد استغلّ كريمة وإلهام ثمّ فرّ وهرب. أمّا ذلك الحبّ الذي يكون في الأغنيات؟ حبّ حزين، مثيرٌ للشفقة، خزعبلي ومبهم، وأحيانًا يكون غريبًا لدرجة يصعب تصديقه. حين يضغط هو على يدها، وهي تلحس إبهامه، ويعصرها جيّدًا بين ذراعيه، وهي تُعلن كاذبة؛ وصلت إلى نشوتي. أنا

في قمّة النشوة، عبّاس، هذا حبٌّ خرافي. عبّاس، ألا تعلم أنّ الكلّ يسرق؟ ما رأيك بأن تسرق الأشعار عوضًا عن كتابتها؟ الكتابة شيء مرهق ومملّ، أمّا السرقة فهي مغامرة ممتعة ومرحة، والحماسة فيها عالية، لكنّك أمامي ولا تقول سوى الشعر، الشعر، الشعر. لطالما كان هناك ذلك الشعر، في مكانٍ ما، تحت سماءٍ ما، في مدينةٍ ما، تحت اللحاف يختبئ من سارقي الأشعار. يقولون إنّ الشعر هو الحقيقة الوحيدة، والكلّ بدوره يبحث عن حقيقته يا عبّاس. عبّاس، قل لي... متى يموت الشعر؟! هل يموت؟ متى يموت الشاعر إذن؟ لا، إنّك لا تعرف شعور الندم؟ ولست نادمًا البتّة. لأنّه في تلك الأيّام، حين قتلت رفيقك اللزم، الجثّة طارت. والدماء اختفت. لكنّك في حيرة كبيرة، وفي ورطة أكبر. ذلك اليوم كان يومًا مصيريًا بالنسبة إليك. لقد قرّرت مهنتك المستقبلية. أن تصبح شاعرًا. آه شاعر، شاعر يحلم ويطوف العالم، قبل أن يطوف الديار ويكتب ويتأمّل ويمزّق الأوراق، ويبتلع الأشعار ويدوّن أشعارًا عن الموت والحياة والحبّ والليل. أوه عبّاس، أنت فعلًا شاعر. إنّك لا تشبه أيًّا من الشعراء الكبار. لأنّك أنت الشاعر الأكبر. أنت الشاعر الوحيد. أنت وحدك من يعرف كلّ شيء عن هذه البلاد، من شمالها حتى جنوبها. عبّاس، لقد وخزت ماما ناديا بإبرة صغيرة وقلت لها... ماما ناديا، أريد أن أصبح شاعرًا. اللعنة، لقد كنت يومها مراهقًا، أنت تعلم هذا جيّدًا، وتعلم أنّك رغم قتلك لرفيقك اللزم لن تحصل على فتاة عمرك، تلك التي أحببتها بجنون. لا بدّ من أنّك مجنون يا عبّاس! من يحبّ بجنون لا بدّ من أن يكون مجنونًا. أنت تريد الحصول على السلطة، ومساعدة الفقراء. تحلم أحلامًا كبيرة، وتحلم بأن تقضي على الرأسمالية كلّها، وطموحك كبير لدرجة أنّك تريد أن تقضي على كلّ الطبقات الفقيرة. تتبع أحيانًا أفكار كارل ماركس، لكنّك تخفق. اسمع، إنّ كلّ ما تحلم به، شيطاني بالدرجة

الأولى، أحلامك أحلام مدينةٍ فاضلةٍ لا أكثر. أنت لا تعلم كيف تكون الحياة هنا، بيننا معشر البشر. لا وجود لمدينة فاضلة هنا. وحتى إن حصلنا على مدينة فاضلة فسيبقى الناس يلكم بعضهم بعضًا، وستبقى هناك مجاعات كبيرة لا تنتهي في هذا العالم. عبّاس، يا لك من شيطان، أوف إنّك تخدعني، ولا تعرف سوى أن تخدعني. تحاول أن تسحبني نحوك كي تقرأ لي أشعارًا باهتة. تعتقد أنّ الشعر هو القوّة الكبرى، وبالشعر وحده تستطيع أن تقضي على النظام الرأسمالي وبناء دولة حضارية. دولة؟ دول، حيوان أنت. نحن لا نملك دولة، نحن نملك قطّاع طرق. وفلسطين يا عبّاس، فلسطين، إنّك لا تعرف فلسطين كما يجب، مسكين. يا لك من أرعن! لقد قتلت رفيقك اللزم فكريًا لا جسديًا، لذلك طارت جثّته. هناك من يقول إنّنا يجب أن نقتل كلّ أفكارنا التي تلقيناها من الآباء. اللعنة على الآباء كلّهم. إنّي أكره كلّ الآباء والعائلات، إنّهم يعلّمونك أولًا المحافظة على نظافة غرفتك ومنزلك، وعندما تركب السيّارة تراهم يقذفون النفايات من شبّاك السيّارة. أيّ ازدواجية هذه؟ وتسمعهم يهمسون لك «... هيّا حان الوقت كي تنخرط مع هذا المجتمع الكبير». وتعتقد أنّك تعيش في مجتمع. لكنّ الحقيقة المرّة يا عبّاس، أنّنا نعيش منعزلين عن بيئتنا المحيطة. نعيش بين الأشياء، لا في الأشياء ذاتها. إنّك ترى في الشارع، لغتين معلقتين فوقك، كتيبة حمقاء كُتبت بأبجديتين مختلفتين، طريقان لا تعرف لهما أيّ مخرج. عالمان واسعان لكنّهما يتقلّصان. وعليك دائمًا الاختيار بينهما يا عبّاس، صدّقني. العيش هنا في حيفا مأزق. مأزق كبير. وصدري يضيق. إنّي أحسُّ جيّدًا بما تشعر به، فأنت تشعر هنا بالوحدة. لكن حبيبي عبّاس، فلسطين هي وطن الوحيدين، المنسيّين. شوف، العالم كلّه يرفضك. العالم كله يقف لك في المرصاد ويرفض إعطاءك فيزا شنغن. أنت إرهابي لعين. وأنت

أيضًا لست إنسانًا. لأنّك ببساطة لا تشبههم. انظر إلى جلدك الثخين، لونه، شكله، لونك الغامق، عينيك الجاحظتين، أطرافك الطويلة الملتوية، شعرك الأسود، قضيبك الصغير. أوه عبّاس. مقارنةً بالرجل الأبيض، أنت مشوّه، أوها! من يحبّنا يا عبّاس؟ ولماذا ننتظر الرضى من الرجل الأبيض؟ هذا الرجل هو من يحكم العالم يا عبّاس. والآن ما بالك في بلدٍ أو مدينة فاضلة، يأكل الناس فيها الفطائر بالسكّين؟ ذلك أنّنا لن نجني سوى المذلّة والسخرية القاتلة. وسنصبح متغطرسين بصورة مثيرة للشفقة ولن نكون سوى كسالى، قذرين، رعاع، ثقيلي الظلّ والدم، وسطحيين جدًا في الوقت نفسه. إنّ هذا عالم يصرُّ على أن يُبعدك عن طبيعتك، ويجعلك تُشرّح كلّ شيء بالشوكة والسكين. ويحدّد لك معايير معيّنة. لكن شوف، دعك من كلّ اللغات الفصيحة والتملّق. ودعني أقُلْ لك ما تقول ماما ناديا، ولعلّه شيء سخيف للغاية، لكنّها تقول إنّ الدنيا دوّراة، وإنّ الظبية البيضاء ستذبل بعد مئتي قرن. لا أعلم ما قصدها من ذكر الظبية البيضاء تلك. لكنّها ترى أنّ هذا العالم يتبدّل كلّما تموت ظبية ما، في مكان ما، في زمن ما، تحت شمسٍ ما. عبّاس! إنّنا نكره هذا العالم الكبير، ونراه وسخًا، لذلك نستمرّ في رمي النفايات. وتفكّر قائلًا: لماذا لا أتمتّع بميزات الرجل الأبيض؟ وحده ذلك الرجل الأبيض من يريدك أن تصبح متخلّفًا أكثر. عدا عن أنّك كائن محطّم ومنسيٌّ بالدرجة الأولى، عبّاس، إنّ مجتمعنا في حيفا مقسّم على هذا النحو... محافظون جدًّا أو منحلّون جدًا. لا تملك حلًّا وسطيًا. كلّا الحلّين متطرّف. وفي كلتا الحالتين يأمرونك بقولهم: ارتدِ هذا! هذا سيّئ. هذا جميل! إنّك بشع! شعرك مقرف! إنّك مقزز وتُشعرنا بالاشمئزاز! ما أقساهم! أخبرني بماذا تشعر عندما يقولون لك إنّك خنثى؟ أو إنّك لوطيّ، أو لوطيّة، إنّهم لا يعرفون شيئًا عن دُنيا سدوم وعمورة. لطالما وعد الله الرجال بحوريّات فاتنات في

الجنّة، مثلما أوهم حسن الصباح قومه بجنّة كبيرة خرافية. تتساءل النساء... ونحن لماذا لم يطلق الله أيّ وعدٍ لنا؟ الحوريّات للرجال، والغلمان للرجال اللوطيّين. والنساء؟ آه نساء وحيدات في جنّة وحيدة. لطالما صُوّرت الجنّة عبر أمثولة أنّك ستموت شهيدًا وستنكح الحوريّات. يا له من مسكين ذلك الرجل، الذي جُلُّ باله في النكاح في الدنيا والآخرة. لكن يا لها من متعة، الموت بقضيب حادّ ومنتصب. وعندما تحلُّ علينا الساعة، ينهض الرجل من قبره، بقضيب منتصب. ويُخيَّل لي أنّ كلّ خطاياه مغفورة. أمّا حوّاء المسكينة، فستأتي منكسرة الخاطر، وبالها مشوّش، تضطجع على التراب، بالكاد تقف على قدميها. ويُخيّل لي أنّ النار مصيرها، بعدما فقدت عذريتها قبل أن تعقد نكاحها الشرعيّ. عبّاس، صدّقني، أنت تقول ألبرتين، وعقلك لا يفكّر سوى في فرانسواز، وألبرتين. حيفا ليست سوى بالبيك. تلك هي حيفا. تلك المدينة المتخيَّلة هناك. عبّاس يا رفيقي، لا أريد أن أراك زعلان! وأقول زعلان! لأنّي أعلم أنّك تحبّ الزعل. وتزعل كثيرًا ولا أقول حزن، لأنّ الحزن مرحلة أخرى من الإحباط. لكنّك تعلم بأنّ هذا سعار. وذاكرتك تصبح مشلولة، وغير قادرة على تخزين أيّ فتفوتة من الذكريات. قل لي **ما سعة ذاكرة الدماغ البشري؟ هل هناك حدّ لكمّية المعلومات التي يمكن تخزينها؟** هناك الكثير من الأسئلة التي تراودك يا عبّاس، وتخاف على ذاكرتك، مثلما تخاف على عضوك. وتخاف أن تصبح إنسانًا بلا ذاكرة. الذاكرة ذلك الشيء الذي طالما كان لا يُقهر في نظرك، لكنّ ذاكرتك تعمل بطريقة مختلفة عنّا. اسمع، أنت تعلم بأنّ دماغ الإنسان يتكوّن من نحو مليار خليّة عصبية. تشكّل كلّ خليّة عصبية نحو ألف اتّصال مع الخلايا العصبية الأخرى، التي تصل إلى أكثر من تريليون اتّصال. عبّاس، يصعب حساب سعة تخزين الدماغ الدقيقة للذكريات. لأنّنا أوّلًا، لا نعرف كيف نقيس حجم

الذاكرة. ثانيًا، تتضمّن بعض الذكريات مزيدًا من التفاصيل وبالتالي تشغل مساحة أكبر؛ وبذلك يتمّ نسيان الذكريات الأخرى وبالتالي يتمّ إخلاء بعض من المساحة التي تسمح لبعض الذكريات الأخرى بالدخول! بالإضافة إلى ذلك، بعض المعلومات لا تستحق التَذّكُر في المقام الأول، مثلًا أنّك تحبّ القوام الرشيق. هذه معلومة لا تستحقّ التذكّر إطلاقًا، لكن أكرّر لك هذا، إنّ ذاكرتك لا تعمل مثل ذاكرتنا. أنت تملك ذاكرة عشوائية ومحدودة. محدودة جدًا، أنت تتذكّر أشياء صعبة التذكّر أحيانًا، وتنسى أشياء مهمّة جدًا. تنسى أنّك قتلت ماما ناديا، وتسمح لعقلك بالاعتقاد بأنّ ماما ناديا هي جدّتك التي تحبّها، وتعيش في الأوهام وتبني ذكريات جميلة جدًّا مع ماما ناديا. أنت تعلم أنّ ماما ناديا هي أم بيبو، وتراني ألعب دور بيبو في قصّتك. لكنّي لست بيبو ولن أكون. وعندما كنت تمرض يا عبّاس، كانت ماما ناديا تعتني بك جيّدًا حتى يُجنّ جنونها. أنت تعلم كيف تصبح ناديا عندما يُجنّ جنونها. تصبح حلوة أكثر. لكلٍّ منّا هناك ذاكرة أولى، لا محال. هناك ذاكرة أولى لا تستطيع أن تنساها. وذاكرتك الأولى تعود على نحوٍ عنيف وخطير، بصيرتك الأولى تعود عند جسد ماما ناديا. تراها تشلح أمامك. وترى نهديها الورديين، وجسدها الرطب، وتراها عسلًا، إنّها فعلًا عسل. وتشعرك بأنّك فحل أو فارس يقود جيادًا قويّة. إنّ لمن شيمها الإغواء، هي تعلم جيّدًا كيف تغوي كلّ من حولها. ولأنّها كانت تغويك، تفكّر فيها دائمًا ولأنّها لا تسمح لك بالاقتراب منها، تفضّل أن تقتلها، على أن تراها مع رجلٍ آخر غيرك. وتسمح لعقلك بأن يقتحم حياتنا وخاصّة حياة بيبو، وتسرق منه رفيقة عمره بسيل. تلك الفتاة التي يخطّط بيبو لأن يتزوّجها قريبًا. لكنّك تسرقها منه وتجعلها ملكًا لك، أنت تعلم أنّه لا وجود للحقائق. وتعلم أنّنا نملك الكثير من وجهات النظر لكنّنا لا نملك أيّ حقيقة. من الصعب أن تمتلك حقيقة واحدة،

تصدّقها طوال عمرك. لأنّ حقيقة اليوم ليست حقيقة الغد. أوه أسمعك تقول الخليقة؟ صدّقني يا عبّاس، أنا لا أعلم إن كانت الخلقية حقيقة. إنّها ضربٌ من اللهو. أخبرني، كيف تكون بارعًا هكذا في تقليد الأصوات وسرقتها؟ إنّك تنتحل شخصيات كثيرة، ولديك القدرة على اختراع أشياء عجيبة. لكن كيف؟ هذا هو صوت الأشياء. عندما تحفُّ الطاولة الحائط، تسمع بالضرورة صوتًا مختلفًا عن صوت الكأس حين تنكسر، كلّ صوت يتميّز عن الآخر في حدّته، أو نبرته، أو حتى في شكله. وغالبًا عندما ينهض الصوت من نومه يكون متعبًا بعض الشيء، لكنّك لعوب. تلعب معنا لعبة خطرة جدًا، وتتكلّم بصوت ماما ناديا أحيانًا، وأحيانًا أخرى بصوت جدّك، الذي بدوره يكون زوج ناديا. لقد كُشفت لعبتك. يا لك من خبيث. اسمع، لا يمكنك استغفال القارئ أبدًا. ألا تعتقد بأنّ القارئ دائمًا على حقّ؟ لكنّك لا تُلبّي مطالب كلّ قارئ. أنت أناني وتُلبّي فقط مطالب قارئ واحد. مجنون مثلك، لا يهاب التجربة. وتقول إنّ كلّ قارئ آخر هو قارئ غبيّ بالضرورة، أو قارئ لا يستطيع أن يفهم لعبتك. مسكين يا عبّاس. القارئ أذكى ممّا تظنّ حضرتك. إنّ أغبى قارئ سيقذف روايتك هذه ويمسح بها مؤخّرته. لقد انتحلت شخصية ماما ناديا، وبعدها شخصية زوجها. لكن أتعلم ماذا، لقد وقعت في فخّ كبير. لقد فشلت في إعطاء كلّ صوت حقه. إنّ كلّ صوت من الأصوات التي انتحلتها، فشل في أن يكون مستقلًّا عن نظيره، كأنّ كلّ الأصوات هي صوت واحد. أتعلم ما مشكلة قصّتك يا عبّاس؟ إنّها مثل الهرج والمرج! لا تخرج منها بهدف، تبقى عالقًا فيها. إنّها مأزق كبير لأيّ قارئ، ولكن دعني أنصفك قليلًا، أنت هنا في حيفا، لكنّك لا تسكن إلّا في قاضي كوي. لا تعرف الذهاب إلّا نحو بيشكتاش. توجد قوانين لكلّ لعبة، لا يمكنك كسر القوانين دائمًا. أحيانًا لا بدّ من سياسة القطيع. لكن دعني أنصفك مجدّدًا، أنت تقول

الكثير عن بناء الشخصية داخل أيّ عمل أدبي، وتقول إنّ الشخصية يجب أن تكسر القالب الذي خُلقت فيه. يجب أن تتمرّد الشخصية على خالقها، وتشقّ طريقها بذاتها، وإن لم تتمرّد الشخصية على خالقها، تكُنْ شخصية ضعيفة، لا طعم لها، ولا تعرف أن تتحرّك، بل تحتاج دائمًا إلى توجيه. وبالتالي تخرج لدينا شخصية مفبركة لا تستطيع التحكّم بذاتها. لا تملك آراءً مستقلة، بل تكون تابعًا. فعلًا، يجب أن تكون بالضرورة تابعًا لكنّها تكون تابعًا لعالمها المستقلّ الذي اختارته بنفسها، لا للعالم الذي وُلدتْ فيه هذه الشخصية. وأنت يا عبّاس، شخصياتك كلّها مفبركة غير حقيقية. حتى بيبو؛ تلك الشخصية الغلامية وفلسطين ليست إلّا حجّة، أو ملاذ. حتى شخصيتك مفبركة، جسدك وحده، هذا الذي أمامي، وحده، ما أعتبره شبه حقيقة. إنّك أناني، ولا تعرف سوى أن تكتب عن نفسك. ولا تصدّق سوى أفكارك ومعتقداتك. إنّك لا تسمع. وترفض كلّ فكرة مخالفة لفكرتك، أنت بطريركي كبير وتعيش في الحلم. إنّك تعيش في الأحلام وتعلم أنّي معالجك، وقارئك الكسول. لا أستطيع أن أتحمّل كلّ خرافاتك. دعنا نعترف للقارئ! هيّا، لقد فشلنا معًا، لقد فشلت في أن تكون شاعرًا في البداية، وفشلت في أن تكتب رواية. وفلشتُ أنا خالقك، في أن أساعدك على الخروج من هذه اللعبة. دعوني أعترف بأنّ عبّاس خدعني، وجرّني نحو لعبته. سوف أحرّرك من هذا المأزق، لا تقلق. لقد دفعت لي نحو عشرين ألف شاقل، مقابل كلّ تلك الجلسات. وسمحت لنفسي بأن أسمعك بوضوح تامّ. أتعلم ذلك الظلّ الخفيّ الذي تكلّم عنه كارل يونغ؟ ذلك الشيء الذي يجعل الإنسان يفكّر في أفكار إجرامية، أم أنت تفضّل مدرسة لاكان في التحليل النفسي؟ أنا لا أدري، أنت تعاني من التباس في الشخصية. هو شيء أكثر من انفصام. دعنا لا نخوض في تفاصيل علمية دقيقة. لكنّك يا عبّاس، كيف أقولها،

أنت، أنت تعاني من اضطراب الهويّة الانفصالية أو DID، أيضًا تعاني من اضطراب الهويّة الجندرية أو GD. قد أكون مخطئًا في تشخيص حالتك، لكوني معالجًا يحمل شهادة متواضعة، ولا أملك شهادة من كامبريدج أو هارفرد. لكنّ ناديا ليست إلّا شخصية. جدّك ليس إلّا شخصية. بيبو ليس إلّا حبيبًا منتظرًا. الجنود والعساكر والاحتلال... والأضواء، وألبريتن، نعم، ألبرتين، لقد فقدت عقلك بقراءة كلّ تلك الروايات. ولكن دعني أقرّ بأنّي أغار منك. فأنت تعيش في شخوصٍ، أفشلُ في معرفتها. دعني أعترف؛ اللقاء معك كان لقاءً خاصًّا. عالمك كبير ولافت. حرام أن تعيش هنا، حرام أن تبقى بيننا. سوف نظلمك. حرام أن تبقى في حيفا. يجب أن تذهب نحو قاضي كوي. لا بدّ أنّ هذا جنون. أعلم، لكن لا بد من الاعتراف؛ إنّ كلّ شاعرٍ هو مجنون، لكن ليس كلّ مجنون يكون شاعرًا. عبّاس، لا يحق لي أن أراك جثّة هامدة. لا أستطيع، لا أستطيع أن أفرّط فيك وأُضيّعكَ. لا أريدك أن تضيع من قبضة يدي. لكن لا، محال، إنّها النهاية، مثل نهاية كلّ الأشياء. كلّ شيء يطمح بإنهاء ذاته في مدينتنا الوسخة هذه. عندما تصهل المدن من خلفك، وعندما يفرّ الصباح من السماء، وينكسر الليل فوقك، ويسحب ذاته من دورته المعتادة، ويختبئ مُعلنًا انسحابه، عندها ستدرك نهايتك الفظيعة. تلك هي النهاية، بكلّ بساطة. لكنّي سأحاول أن أنقذك. اسمع، لا يمكنني إطلاق سراحك من هنا. ذلك لأنّه يُخيَّل لي أنّك ستموت منتحرًا. لكن لا، لا أريدك أن تترك مغامرتك المرحة البتّة وترحل طيّ النسيان. لا أريدك ميتًا. اسمع، لا يمكن لكلينا أن يحصل على الحرّية، على أحدنا أن يبقى سجينًا. تعلّم هذا الدرس؛ لا توجد حرّية لاثنين. لا يمكننا أن نتحرّر معًا. عبّاس، أنا سجين هذه المهنة التي أمارسها، وأنت سجين خيالك وشخوصك التي تعيشها. يجب أن أكتب هذا التقرير، يجب أن أنشر هذا، سأخسر

مهنتي. هذه معضلة أخلاقية. نعم لا أستطيع أن أتركك، لكنّي لا أستطيع أن أكون معك. ماذا أفعل؟ لا أريد أن أقذفك في مصحّة ما، ترتعش من البرد في سرير ما، وفوقك غطاء تالف، تحاول أن تشدَّ أطرافه كي تشعر بالدفء. كنت قد قرأت رواية فابيان، أليس كذلك؟ عندما «ناح وجاح» على موت رفيقه. والآن، إنّي أنوح وأجوح عليك يا عبّاس. أوف، تسألني، لماذا تموت؟ سؤال مهمّ! لكن دعني أسألك سؤالًا أهمّ؛ لماذا لا تموت؟ تقول إنّ الشعراء لا توافيهم المنيّة، لكن التفكير في الموت بحدّ ذاته؟ أمرٌ مؤسف! ويفقد منطقيته أحيانًا! تقول إنّ الشخصية لا تكون شخصية حقيقية، إلّا إذا عصت خالقها. لماذا لا تعصي خالقك إذن؟ لماذا لا تتشبّث بحرّيتك. ما يحدث في الأدب، يعيش في الأدب فقط. أنت تعلم هذا جيّدًا، للأدب قوانين خاصّة، لا يمكنها أن تكون في حياتنا العادية. هذا هو سحر الأدب، وأنت تريد مدينة لك وحدك. مدينة خاصّة بك، مثلما هناك دبلن لجيمس جويس، وتشيلي لنيرودا، وباريس لبروست، لكن حيفا لا يمكنها أن تكون مدينتك. حيفا بلدة مدمّرة، يكسوها العفن وتسكنها الديدان. وأنت تذبح نفسك بالصراخ؛ يا أهلي في حيفا، يا أهل حيفا، وا أسفاه يا حيفا المسكينة! يا لها من مدينة ساحرة مسكينة. عبّاس، هذه حيفا! حيفا من وجهة نظر طفل لا يكفّ عن البكاء، وبعد سنوات ستشعر بالحنين نحو ذلك الطفل الذي كان يرى حيفا على ذلك النحو البسيط، الساذج، لقد فشلت في وصف حيفا وأهلها وشوارعها وأزقّتها، أتسمع صوت الزقاق... ذلك الصوت الضئيل؟ هذا هو النزوح. ولأنّ حيفا مدينة تملّصت من حقيقتها، إنّها تقبع في القاع. عبّاس، أيّها الغول، إنّ كلّ الأشياء تبدأ هناك في مكان يُدعى الأحلام، أوه الأحلام. هناك حيث نكون أنا وأنت وكلّنا، إنّك تلفُّ الدنيا كلّها، وتطوف العالم. لكنّك ترجع زاحفًا نحو الديار. لا مفرّ من العودة إلى

الديار يا عبّاس، وما الوطن إلّا تلك، تلك المساحة الشاسعة التي تكسوها بعض الأشجار. وما الوطن إلّا تلك، تلك الأحلام البعيدة جدًّا، المستحيلة جدًّا؟ وأنت ستعشق كثيرًا وستخسر كثيرًا، لكنّك ستعود نحو ذلك الحلم الأول، الذي طالما كان، نحو الأشجار الأولى التي غُرست في تربتها الأصلية. أوف عبّاس، الأحلام لا تموت أبدًا. هذه كلّها بِدعٌ لا تصدّقها! وا حسرتاه! حيفا مدينةٌ بوجهين، وأنت شخصية بوجهين. تملك لغتين، تملك لغة، تملك نصف لغة، وأحيانًا لا تملك أيّ لغة. وأنت عبّاس، بوجهين، بثلاثة وجوه، وحيفا مدينة تقطن في ظلام دامس. وأنت شيطانٌ أخرس. لأنّ الحقيقة خسرت حقيقتها. والآن يا قارئي العزيز، الذي يحبّ الروايات الرومانسية وأشعار الحبّ الذي يصعب نسيانه، هل عرفت من أكون؟ أوه هذا أنا! أنا وحدي! لكنّي لا أظهر وجهي، أخاف من أن أظهر وجهي. أنا ذلك الصوت، الذي يطنُّ في أذنك مرارًا وتكرارًا، هل عرفت من أكون؟ قد أكون ضميرك ذلك الذي نسيته. اسمع، أنا مشغول جدًا بكتابة أحلامي لا أستطيع أن أكون الشخصية نفسها كلّ يوم. هذا مملّ! هذا مؤسف! عبّاس، استيقظ! هيّا! لا أريد أن أكون وحدي! عبّاس، هذا حُلم جميل. هذا حلم صعب! هل أنهيت الكنتاتا الآن؟ لم أُنهِ بعد ولكن... الزمن!

إسطنبول 2018 – حيفا 2021